نقش كتابي بصهريج يعقوب شاه المهمندار بالقاهرة، يسجل مآثر السلطان قايتباي المعمارية والحربية

(٩٠١هـ/ ٩٥-١٤٩٦م)

Mamluk inscription in the Cistern of Ya^c^qūb Shāh al-Mihmandār in Cairo, Records the Architectural and Military Exploits of Sultan Qāyt Bāy

(901 AH / 95-1496 CE)



Abstract

This is an extensive study about the inscription of the cistern of Yaᶜqūb Shāh al-Mihmandār in Cairo (901/1495-96). This Cistern is small building existing at the foot of the citadel; however it is very important building, not only for its function but also for the content of its inscription. In spite of there are previous studies of the inscription, but it is abbreviated studies. Therefore, it should re-study again in comprehensive form.

The inscription showed that the building at the time of construction was a double cisterns with two domes, established by Yaᶜqūb Shāh al-Mihmandār (one of amirs during the reign of the Sultan Qāyt Bāy, and he is one of loyal friends of this sultan). Although the inscription is a construction text, but it is considered a documentary and ceremonial text. Because it recorded the religious and knighthood achievements of Sultan Qāyt Bāy, which made him surpassing from his peers of kings and sultans, and recorded the military and architectural accomplishments of the same Sultan. For example, in Makkah Sultan Qāyt Bāy reconstructed Masjid al-Khayf (Al-Khayef) in the south of Mina (873/1467), also he restarted and flowing the aqueduct of Arafa (Ain Zubaidah). In Medina, he reconstructed the Prophet’s Mosque. In Jerusalem he restarted and flowing aqueduct of el-Sabīl. Afterwards the inscription finished by epic report about victory of the Mamluk army against Ottoman army in battle of Adana (891/1486), and capturing the commander of Ottoman (Hersekzāde Ahmed) and bringing him to Cairo in a humiliating way.

على بعد خطوات معدودات من برج المبلط أحد أبراج قلعة صلاح الدين الأيوبي بالقاهرة؛ وفوق نشز غير بعيد من جبل المقطم، يقوم صهريج الأمير يعقوب شاه المهمندار (لوحة ١، ٢)، هذا الأمير الذي كان يشغل وظيفة قراءة وترجمة الرسائل الواردة عن ملوك الشرق، وكان من خلصاء السلطان قايتباي[١] قبل توليه السلطنة، فلما اعتلى قايتباي العرش جعله كبيرًا للمهمندارية. وقد أنشأ هذا الأمير هذا الصهريج لحاجة ملحة للماء في ذلك المكان من الدرب السلطاني؛ فخدم به السابلة صادرهم وواردهم. ورغم صغر المبنى نسبيًا واندثار أجزاء منه، فإن قيمته الآثارية غاية في الأهمية؛ نظرًا لنقشه الفريد الذي وصف مآثر السلطان المعمارية والحربية؛ وأردف ببيتين من الشعر من نظم الأمير يعقوب شاه نفسه؛ يوضحان تدينه وتصوفه، وينوهان بوظيفة الأثر. وقد كتب النقش في شريط بنمط الخط السائد آنذاك وبمستواه الفني، أي بخط الثلث المنفذ بالحفر البارز، في إزار واضح على جبين المبنى، يحزم الواجهة بجريانه الأفقي الصارم من اليمين إلى اليسار، وهو يروق للنفس ويلذ للعين؛ بما يحتويه من تناسب الخط وجمال الإطار وألوان راح بريقها، ولكن يمكن توقعها، وتحقيق تنوعها بما بقي من أمثلة في عمائر أخرى.

وصفه ونصه كالتالي:

هيئتـــــه	شريط كتابي يحزم الواجهة يشغل مدماكًا من أصل البناء.		
موضعه بالأثر	في منتصف الواجهة بحيث يمر فوق عتب الباب.		
مادة الحامـل	حجر جيري كلسي.	**الحالــــة**	ممتازة.
أبعــــــاده	١١ متر طولًا، و٤٥ سم عرضًا.	**أسلوب التنفيذ**	حفر متوسط البروز.
نوع الخط ومستواه	خط ثلث جيد متداخل.	**لوحة وشكل**	(لوحة ٣ - شكل ١، ٢).

النص

مما أنعم الله على العبد الفقير الحقير تراب الأقدام يعقوب شاه المهمندار عمارة هذين الصهريجين والقبتين في دولة المقام الشريف الخاقاني الفغفوري الفريدوني تاج ملوك العرب والعجم خادم الحرمين الشريفين الذي فاق أقرانه من الملوك بالعلم والعمل والفروسية أبو الفتوحات السلطان منها جريان عين عرفة وعين بيت المقدس وعمارة مسجد الخيف والحرم النبوي على ساكنه أفضل الصلوة والسلام وتوجه العساكر المنصورة إلى مملكة الروم لرد عساكرهم فلما تقابل العسكران وهجمت العساكر المنصورة عليهم كالأسود الضراغم فضيقوا عليهم الأرض بما رحبت فما وسعهم إلا الفرار ففروا كحمر مستنفرة فرت من قسورة فوقع في قبضتهم باش عساكرهم بن هرسك ومن دونه وشبع من لحوم قتلايهم[٢]/ الضباع والذياب[٣]/ والنسور والعقبان فأحضروهم في السلاسل والأغلال بين يدي الحضرة المعظمة وصناجقهم منكسة بالحوش الشريف وكان يوما ما كتب مثله في تواريخ الملوك السالفة/ وكان الفراغ في سنة إحدى/ وتسعماية.[٤]



(لوحة ١) صهريج يعقوب شاه المهمندار بالقاهرة (٩٠١هـ/ ٩٥-١٤٩٦م).



(لوحة ٢) صهريج يعقوب شاه المهمندار بالقاهرة (٩٠١هـ/ ٩٥-١٤٩٦م).









(لوحة ٣ الشريط الكتابي في واجهة صهريج يعقوب شاه المهمندار بالقاهرة (٩٠١هـ/ ١٤٩٥-١٤٩٦م).

وأسفل الشريط السابق على يمين الواجهة على جانبي شباك القبة النص التالي (شكل ٢):

من كلام تراب الأقدم/ يعقوب شاه المهمندار

سألت الله في جنح الليالي

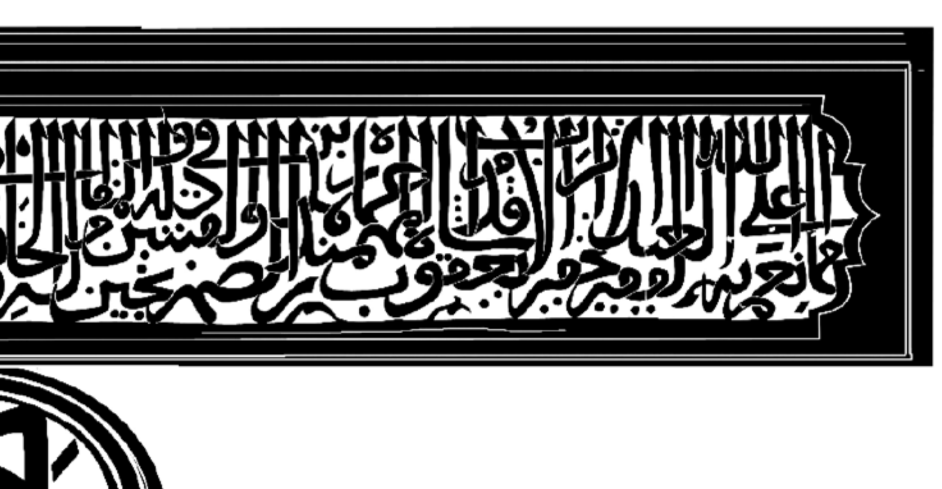
ليجعلني تراب أقـــدام لأصحاب

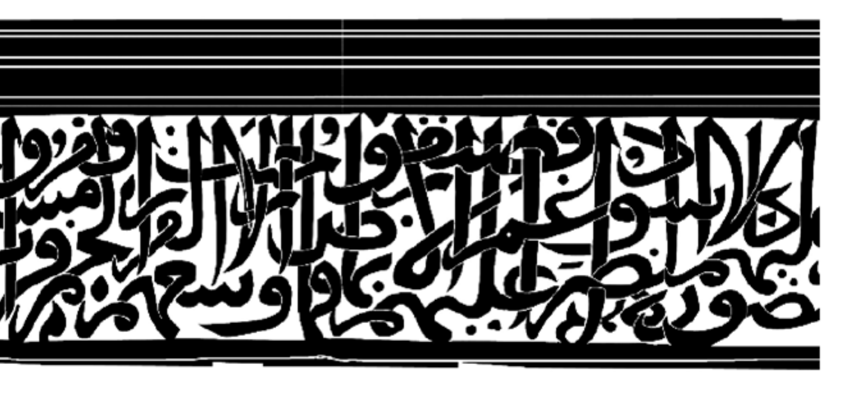
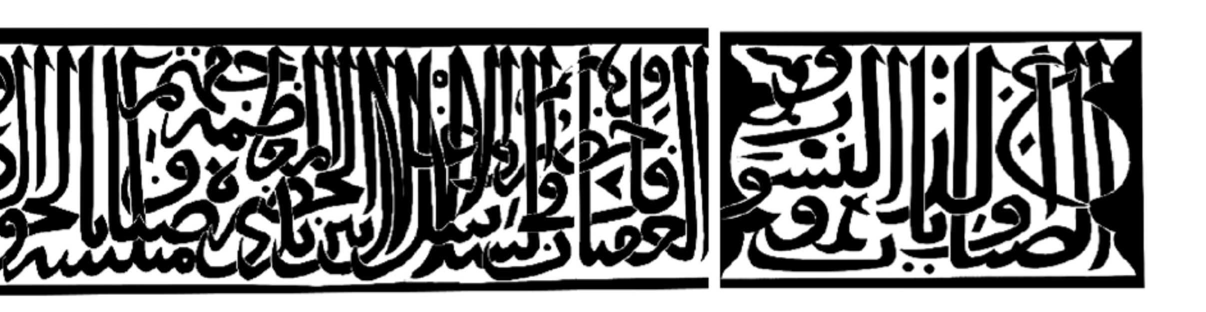
جعلني جارهم أسقي العطاشا

وأشرب من شراب راق لجناب[٥]

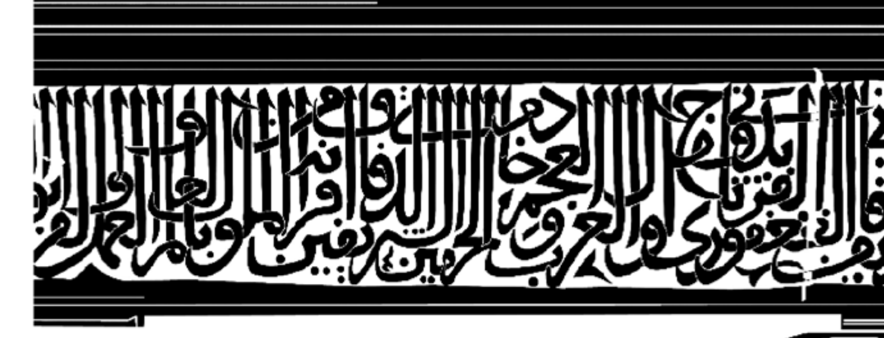
منشئ الصهريج

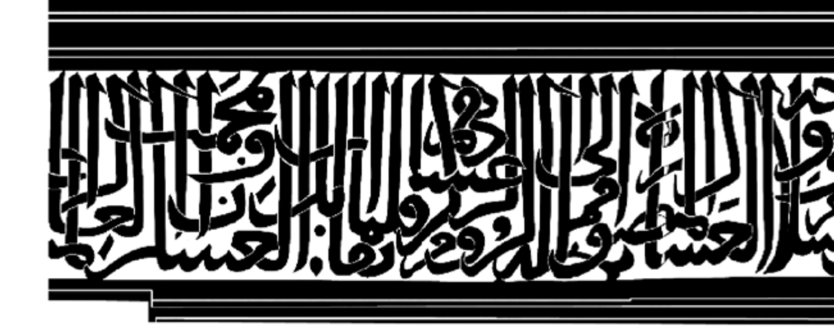
هو يعقوب شاه المهمندار (٨٢٠-٩٠٣هـ) ابن أسطا علي أرزنجاني المولد، ثم تبريزي المنشأ، ثم قاهري الدار والوفاة. ولد سنة (٨٢٠هـ/ ١٤١٧م) بأرزنجان. جاء أبوه إلى القاهرة في أوائل سلطنة المؤيد شيخ المحمودي، وخدم الوالد عند القاضي ناصر الدين محمد البارزي كاتب السر، ثم انتقل لخدمة السلطان المؤيد نفسه لما مات ابن البارزي. وكان بارعًا في رمي القوس علمًا وعملًا؛ بحيث عرف بالأسطا، وعمر نحو مائة



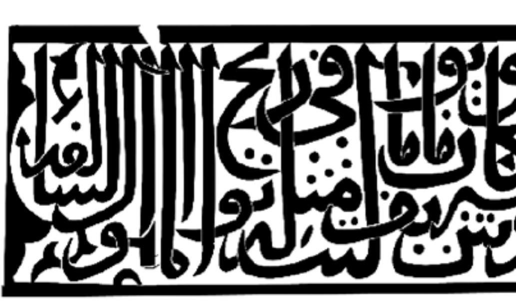




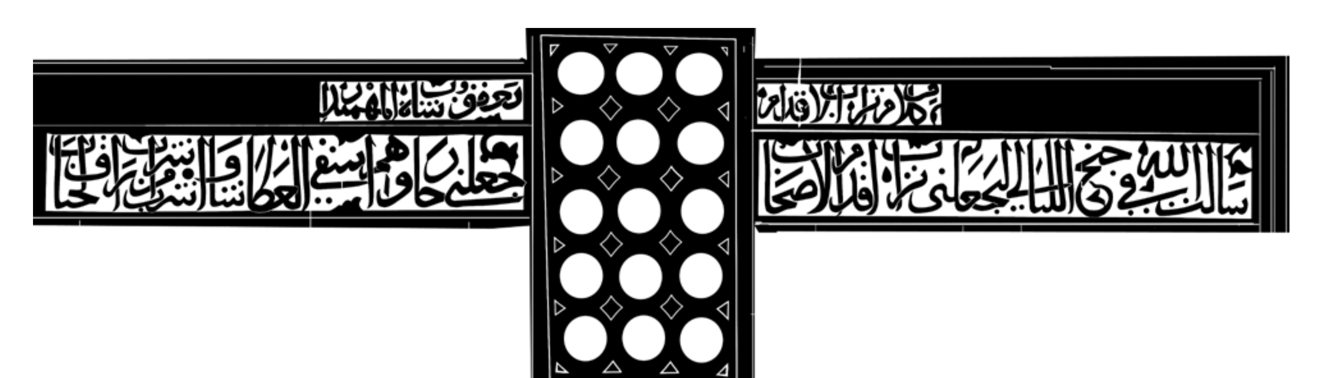
(شكل ١) الشريط الكتابي بواجهة صهريج يعقوب شاه المهمندار بالقاهرة (٩٠١ هـ/ ٩٥ - ١٤٩٦ م)، تفريغ الباحث .











(شكل ٢) بيتي من الشعر من نظم منشئ صهريج يعقوب شاه المهمندار بالقاهرة (٩٠١هـ/ ٩٥-١٤٩٦م)، تفريغ الباحث.

عام[٦]؛ أما يعقوب فقد رحل من أرزنجان مع عمته إلى تبريز، وبها نشأ وقرأ القرآن الكريم، وكان زوج عمته هذه رئيس ديوان السلطان قرا يوسف حاكم دولة القراقيونلية. فتعلم يعقوب تعليمًا ممتازًا فأتقن عدة لغات إلى جانب العربية؛ وصار مدبر أمور زوج عمته. ولما بلغ العشرين من العمر انتقل مع عمته إلى القاهرة بسعي من والده؛ فوصلها في بداية حكم الأشرف برسباي، واستقر كأحد المماليك في الطباق، ثم خدمه الحظ لما سافر مع الأشرف برسباي إلى آمد سنة (٨٣٠هـ/ ٢٦-١٤٢٧م)؛ حيث وصلت مكاتبة من إسكندر بن قرا يوسف لم يتصدَّ أحد لترجمتها، فقدمه القاضي كمال الدين محمد البارزي لعلمه بتفوقه في إتقان اللغات التركية والتترية والفارسية والهندية فضلًا عن العربية؛ لذا عينه برسباي في ترجمة وقراءة المراسلات الواردة[٧]. زد على ذلك أن لسلاطين المماليك وأمرائهم وجندهم ميلاً لمن يتكلم التركية من العلماء والكتاب ومن في معناهم[٨]، ثم صار يعقوب من أخصاء خشقدم وقايتباي حين كانا أميرين، وبقي يعقوب شاه في وظيفته تلك حتى عينه السلطان قايتباي كبيرًا للمهمندارية سنة (٨٧٤هـ/ ٦٩-١٤٧٠م)، إضافة إلى ما بيده من وظيفة قراءة المراسلات وترجمتها. فصفا له الجو ولمع نجمه وذاع صيته وشيئًا فشيئًا حتى صار ركنًا من أركان الدولة، وجمع ثروة كبيرة، وصار واسع النفوذ حتى إنه تدخل في تعيين بعض القضاة؛ ووجد أن حارة برجوان خير من أرزنجان. كذلك صادق أعيان الأمراء كالأمير قانم والأمير يشبك من مهدي، وكثيرًا من القضاة والعلماء والفضلاء، الذين كان من أبرزهم القاضي زين الدين أبو بكر بن مزهر.

وكان يعقوب شاه مع كل ذلك عالمًا بفنون الفروسية، إذ كان مرجعًا في جذب القوس الثقيل وفنون الرمي والرمح والصراع علمًا وعملًا، وكان أيضًا على علم بقواعد النُظم والبروتوكولات والتقاليد والعوائد التي تنظم سير العمل في البلاط المملوكي؛ وأساليب ترتيب العساكر والأطلاب وخروج السلاطين وحاشيتهم في الأسفار والحروب، وألف عن هذا الموضوع كتابًا[٩]، كما صنف يعقوب شاه كتابًا آخر تناول فيه طرفًا من تاريخ التركمان وأولاد دلغادر ومماليك الترك الآخرين، انتقاه من تاريخ ابن حجر العسقلاني وتاريخ العيني؛ ويوجد منه نسخة في مكتبة طوب قابي سراي تحت رقم ٦١٨٦ .٣٠٥٧ عدد أوراقها ٢٢٦ ورقة[١٠].

وقد سلك يعقوب شاه طريقًا وسطًا في أموره مع صلاح وتدين، وختم كتاب صحيح البخاري على عدة شيوخ، وأسند إليه التكلم في وقف الحاجب، ووسع داره بحارة برجوان وبنى بالقرب منه مسجدًا ملحقًا به سبيل، وبنى بيتًا أعلى هذا المسجد أسكنه الشيخ زين الدين السنتاوي[١١]. وكان يعقوب شاه كغيره من أمراء المماليك من أنصار التصوف؛ يقدس الأولياء ويعظم قبورهم، ويبالغ في حب ابن عربي وابن الفارض، ويتعصب لهم ولأهل طريقتهما. ونظرة إلى رفقاء يعقوب شاه؛ كالقاضي زين الدين بن مزهر، والشيخ زين الدين السنتاوي، والخطيب أبي الفضل النويري، والشيخ أبي الخير الكركي البرلسي، والأخير كان خليفة المقام الدسوقي[١٢]؛ أولئك وهؤلاء شكلوا حلفًا ضد الشيخ إبراهيم بن عمر البقاعي الحنبلي الذي كفر ابن الفارض بسبب قصيدته

التائية الكبرى، وكان يعقوب شاه متفقًا معهم؛ واستطاعوا التأثير في السلطان قايتباي وغلبة الشيخ البقاعي وحزبه، ولا غرو فقد تعاظمت سيطرة التصوف في العصر المملوكي، وأثر تأثيرًا بالغًا في الحياة السياسية والحضارية والدينية"[١٣]. توفي الأمير يعقوب شاه في الثالث عشر من شهر صفر سنة (٩٠٣هـ/ ١١ أكتوبر ١٤٩٧م) واستقر في المهمندارية بدلًا منه الأمير أزدمر المهمندار الثاني[١٤].

والمهمندارية إحدى الوظائف أرباب السيوف أو العسكريين في البلاط المملوكي. وهي كلمة فارسية مكونة من كلمتين «مهمان» بمعنى الضيف و«دار» بمعنى الراعي أو المتصدي أو المختص، وهو الشخص المسئول عن رعاية الضيوف من الواردين على السلطان من أمراء وسفراء وقصاد وعلماء وأعيان وعربان، والقيام بأمر راحتهم وإنزالهم في دار الضيافة، وترتيب الزيارة لمقابلة السلطان، ومساعدتهم على مشاهدة معالم المدينة، وكل ما من شأنه أن يوقع الرهبة والهيبة في قلوبهم؛ يبين قوة الدولة وعظمتها، واتساع ملكها، وقوة عساكرها وشدة بأسهم وسطوتهم وبراعتهم في استخدام السلاح والرماية والفروسية والعراك. ويكون هو القائم بالأمر عند طلوع الرسل القلعة حين تقام الخدمة في الحوش السلطاني، وعرض الجند وأرباب الوظائف، والهدف من العرض إظهار الهيبة والأبهة للدولة وعظمة السلطان وجنوده أمام السفراء، وهو المسئول عن طعام السفراء وسلامتهم مدة إقامتهم.

وكان من صفات متولي المهمندارية؛ إتقان اللغة العربية، ومعرفة أكثر من لغة من اللغات الحية كالفارسية والتركية والتترية والهندية؛ لذلك فكان يقوم بوظيفة الترجمة بين الرسل والسلطان، وكان يستخدم لهذه الوظيفة أجانب، وبخاصة المسيحيون الذين اعتنقوا الإسلام، وذلك فيما يخص ترجمة اللغات الأوروبية. ونظرًا لما لهذه الوظيفة من دور إعلامي، كان لا بد أن يكون متوليها عفيفًا أبيًا فارسًا قويًا مخلصًا للسلطان، وأن يكون هندامه على أحسن ما يكون. ولأن سحر البيان ولغة الجسد تعمل كعمل الحسام، كان عليه أن يكون متزنًا من غير خفة، حسن الكلام ووقورًا، بحيث يجمع أحسن الصفات الجسمانية والخلقية التي يجب أن يعرفها السفير والقاصد عن الدولة ورجالها؛ لينقلها إلى قومه فيهابون الدولة وتعظم في قلوبهم، وأن يكون كيِّسًا فطنًا، بحيث يلاحظ ما يجب إكرامه من الضيوف حين يكون الكرم والتلطف علاجًا، ومن يتعين الكف عن إكرامه وتعظيمه في رسالة بليغة تغني عن تحريك الجيوش، وأن يوقف السلطان وحاشيته على أوضاع الضيوف. وكان أمير المهمندارية في العصر المملوكي البحري يطلق عليه «أمير مهمندار»، وفي عصر الجراكسة أطلق عليه «كبير المهمندارية»[١٥].

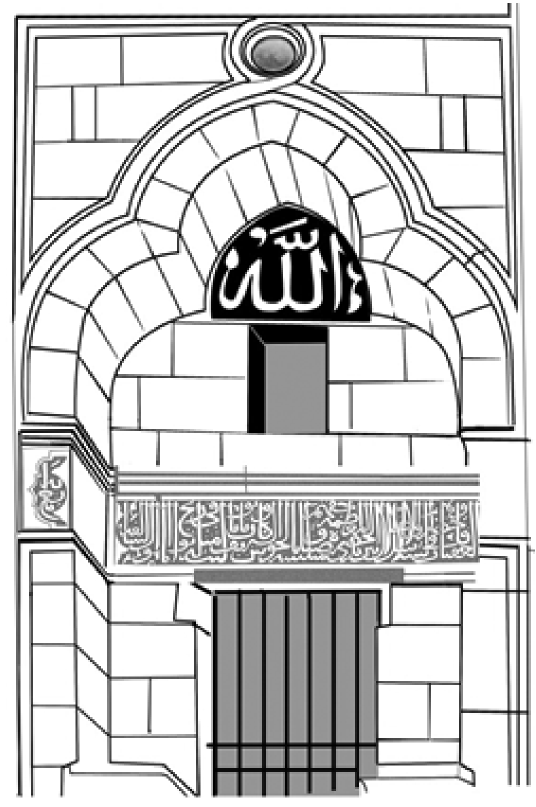
وصف المبنى

ورد في النقش أن المبنى كان عبارة عن صهريجين وقبتين اثنتين، ولكن ما تبقى من المبنى هو قبة واحدة وصهريج واحد.

يقع الصهريج جنوبي القلعة غير بعيد من برج المبلط الذي يشغل الركن الجنوب الشرقي للقلعة (شكل ٤). وهو مبنًى صغير يطل بواجهته المبنية بنظام الأبلق ناحية الغرب؛ ويشغل طرف هذه الواجهة مدخل الصهريج (لوحة ٤، شكل ٣). وهو مدخل يعلوه عقد ثلاثي الفصوص، يحيط به إطار بارز بحيث يكون شكل ميمية فوق منتصف العقد. وتوجد فتحة الباب في دخلة غير عميقة على جانبيها جلستان، ويعلوها عتب حجري فوقه نافذة مستطيلة نقش فوقها لفظ الجلالة. وعلى يمين المدخل شباك كبير كان يستخدم في الماضي لتسبيل الماء، ويعلو هذا الشباك نافذة قنديلية. وعلى يمين الشباك المذكور من أسفل يوجد حنية (لوحة ٥) بها فتحة تخترق الجدار، وتظهر من الداخل في فوهة الصهريج (لوحة ٥)؛ وكان يصب فيها الماء من القرب المحملة على ظهور الجمال لملء الصهريج، أما باقي الجدار فيخص القبة؛ وبه شباك صغير للإضاءة تعلوه نافذة قنديلية. ويسير الشريط الكتابي محزمًا الواجهة من اليمين إلى اليسار فوق شباك القبة، وفوق الشباك الكبير الذي يليها وفوق عتب الباب، أما باقي الواجهات فخالية من أي عناصر زخرفية[١٦].



(لوحة ٤) مدخل صهريج يعقوب شاه المهمندار بالقاهرة (٩٠١هـ/ ٩٥-١٤٩٦م).



(شكل ٣) لفظ الجلالة فوق مدخل الصهريج، تفريغ الباحث.



(شكل ٤) موقع صهريج يعقوب شاه المهمندار.

وتؤدي فتحة الباب إلى دركاة مغطاة بقبو متقاطع، يدخل منها ناحية اليمين عن طريق باب إلى القبة. وهي لطيفة بسيطة خالية من أي زخارف من الخارج ومن الداخل. وهي مقامة من الداخل على حنايا ركنية حجرية؛ حنية من أسفل تعلوها حنيتان، وتتبادل الحطات الأربع مع أربع نوافذ قنديلية (لوحة ٧، شكل ٥)، ثم يعلو جميع ذلك رقبة القبة التي فتح فيها اثنتا عشرة نافذة مستطيلة معقودة بعقود مدببة ويعلو ذلك القبة[١٧].

والشريط الكتابي يؤكد أن واجهة المبنى الرئيسية هي الواجهة الغربية التي تطل على الشارع الأعظم أو الطريق السلطاني وتطل على القلعة؛ لأنها اصطفيت دون غيرها لينقش عليها الكتابات؛ وذلك لأن النقوش والكتابات توضع في الواجهات الرئيسية مثلها مثل المداخل الرئيسية؛



(لوحة ٥) فتحة تزويد الصهريج بالماء توجد بالواجهة على يمين المدخل.



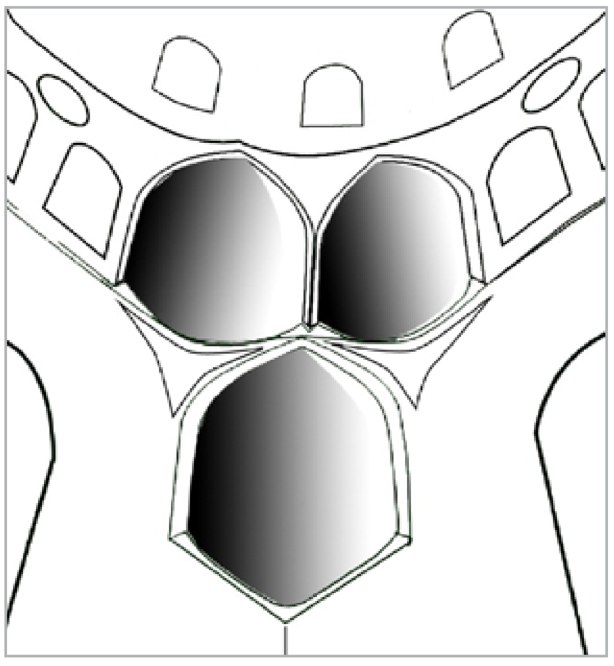
(لوحة ٦) فوهة بئر الصهريج في الداخل.

ومثل كل ما من شأنه أن يبين هوية المبنى ويميزه. وهو يؤكد أيضًا أن الواجهة بقيت كاملة لم ينقض منها شيء؛ بدليل بقاء الشريط الكتابي كاملًا؛ فلو كانت الواجهة أكثر عرضًا وامتدادًا؛ لما لجأ الخطاط إلى حصر الكتابة في هذا الشريط المتداخل والمعقد. هذا يدفعنا إلى القول بأن الأجزاء المفقودة من المبنى لم تكن ضمن هذه الواجهة، ويدفعنا إلى افتراض وجود الصهريج المندثر وقبته المندثرة إما في الجانب الشرقي، وإما في ارتداد بالطرف الشمالي (شكل ٦). وقد رجحنا وجودها في ذلك الجانب لوجود طرف رباط بالحائط بالجانب الشرقي ولوجود شق في الصخور لتكون أساسًا للجدران، ولوجود بقايا من زخرفة الميمية، وإطار بارز لزخارف بالواجهة الشمالية[١٨].

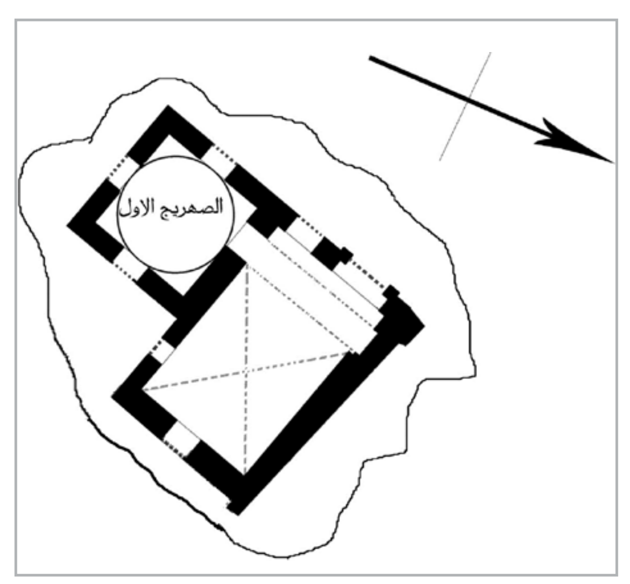
أما فيما يخص مدخل الصهريج، فليس له درج حاليًا، وقد ذكر بعض الباحثين أن الدرج الذي كان يرتقى عليها لبلوغ الباب قد اندثر وأتى عليه الزمن[١٩]. وفي ظني أن هذا القول منطقي في الظروف الاعتيادية؛ ولكن المبنى الذي نحن بصدده يشذ عن العادة؛ فقد أنشئ فوق رأس صخرة ناتئة استغلت ليقوم عليها البناء واختيرت صلابتها لينحت في باطنها الصهريج. ولما كان الماء يحمل على الجمال من نهر النيل ليصب في الصهريج، كان على الدواب أن ترتقي هذه الصخرة من الجانب الأيمن، وتفرغ المياه في الحنية الموجودة بالواجهة السابق ذكرها، ثم تتحدر الجمال من الجهة اليسرى من أمام الباب، حيث لا تستطيع الرجوع للخلف أو الدوران؛ أما المبنى لضيق المساحة فيما يظهر، ومن ثم لو وضع المعمار



(لوحة ٧) القبة من الداخل ومنطقة الانتقال.



(شكل ٥) الحنايا الركنية في منطقة انتقال قبة الصهريج، عمل الباحث.



(شكل ٦) تخطيط صهريج يعقوب شاه المهمندار، عن: دليل الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة، ١٥٨-١٥٩.

درجًا للباب لشغل المساحة وأعاق الطريق. والذي أرجحه وأوشك أن أقطع به وهو عندي أدنى للصواب؛ أن هذه الغاية اقتضت الاستعاضة عن الدرج الحجري الثابت بسلم خشبي متحرك يستعمله عمال الصهريج؛ ويؤيد هذا الرأى تلك اللوحات التي رسمها الرسام الفرنسي جيمس تيسو في أواخر القرن التاسع عشر قبل ترميم لجنة حفظ الآثار. لا يظهر للدرج أثر فيها؛ فالأحجار أسفل الباب ملساء كما هي عليه الآن.

أما فيما يخص ترميم هذا الأثر، فقد تنبه أعضاء لجنة حفظ الآثار العربية لأهمية هذا الأثر الذي كان مشهورًا عند الأهالي (بزاوية الست نصرة)؛ رغم حالته المتداعية آنذاك، وقامت اللجنة بترميمه سنة ١٨٩١م بمبلغ ٤٩٦٩٩ جنيهًا بما فيها من مقايسة تكميلية بمبلغ ٧٤٠ مليمًا، وسجلته في عداد الآثار التي يجب صيانتها والمحافظة عليها؛ وصنف كقبة دفن باسم «قبة يعقوب شاه المهمندار» تحت رقم ٣٠٣، وذكر التقرير أهمية الأثر ووصف دركاته وأضاف ما نصه «إن هذه القبة تحتوي على ضريح له مدخل مغطى بعقد مصلب، وكل ذلك في قاعة مسروقة تحولت لصهريج»[٢٠].

وفي سبيل الحفاظ على هذا الأثر، لم توافق لجنة حفظ الآثار العربية على الطلبات المقدمة من الأهالي لنظارة الأشغال العمومية للترخيص بقطع الأحجار من المحجر (رقم ١٢٠) بجبل الست نصرة آنذاك؛ أي من جوار الصهريج، وذكر تقرير ٤٠١ لسنة ١٩٠٩م «إن استخراج الأحجار من تلك الجهة يضر بمتانة الأثر فضلًا عما يترتب عليه من تغيير منظر الصخرة القائم على قمتها الأثر».[٢١]

وظيفة المبنى

إن هذا الصهريج الذي بناه الأمير يعقوب شاه المهمندار على بعد خطوات من القلعة، من الجائز أنه بني لخدمة الصوفية الصادرين والواردين لكهف السودان خاصة، وللمارين بالدرب السلطاني تحت القلعة طالبين صحراء المماليك عامة. بدليل أنه ذكر في بيتي الشعر المنقوشين على واجهة الصهريج أنه سأل الله تعالى في جنح الليالي أن يجعله خادمًا (تراب أقدام) لأصحابه فجعله الله بجوارهم (في صورة المبنى) يسقي العطشى منهم شرابًا رائقًا لجنابهم، وكذا يلبي حاجة الفعلة والمعلمين المشتغلين في حرفة قلع الأحجار وقطعها وتسويتها من مقلع الحجارة القريب من تلك المنطقة، ونحن نضطر إلى هذه الافتراضات بسبب نقص المعلومات التي بين أيدينا وضياع جزء من المبنى. ورغم أن المبنى كان في الأصل مهمته خزن المياه وتقديمها لمحتاجيها؛ فإن منشئه استغل شريطه الكتابي للتنويه بمجد سيده السلطان قايتباي، فذكر طرفًا من ديانته وحرصه على تجديد المشاعر المقدسة في مكة والمدينة ومجده الحربي في نصره على العثمانيين، ورغم أن السلطان قايتباي له مآثر جمة معمارية وحربية، فإن المنشئ والفريق الذي عمل معه ذكروا طرفًا من أعماله وتركوا البعض الآخر، نظرًا لجلال هذه الأعمال عما سواها.

وقد ذكر بعض علماء الآثار الإسلامية أن الصهريج في الأصل عبارة عن بناية تذكارية للاحتفال بالنصر على العثمانيين[٢٢]. وهذا يبدو مقبولًا لو أن الصهريج بني بعد الانتصار المشار إليه مباشرة أو أن النقش اقتصر على ذكر النصر فقط دون مآثر قايتباي الأخرى؛ ولكنه عدَّد مآثره بمكة والمدينة والقدس والنصر الحربي، وكان إنشاء المبنى بعد حدوث المعركة بعشر سنين، إذن فلسنا نطمئن إلى هذا الرأي بحال من الأحوال.

كذلك لا شك أن المبنى أنشئ كصهريج بنص النقش، وليس كضريح للمنشئ، كما ذكر تقرير لجنة حفظ الآثار. ولا يمكن أن يكون ألحق به ضريح برغم ما توحي به القبة[٢٣]؛ إذ لو بني به ضريح لنوه النقش به ولاختير أن يكون جزءًا من الواجهة الرئيسية؛ كما استقر في عرف المعمار المملوكي، ولكن القبة الحالية بنيت لتغطي صهريجًا، إذ ليس ثمة محراب بها، وأن فوهة الصريج تكاد تكون تحت قطب القبة، إذن فالقول أن المبنى أنشئ لدفن المنشئ وألحق به صهريج قول يجاوزه الصواب.

ويلاحظ وجود حنية بالواجهة متصلة بالصهريج الواقع أسفل القبة[٢٤]، وهو المكان الذي تفرغ به قرب المياه المحمولة على ظهور الجمال؛ وهو ما يؤكد وظيفة المبنى.

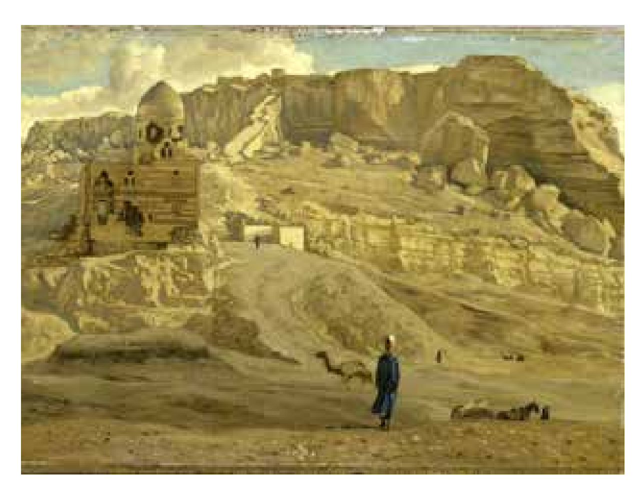
موقع الصهريج

أود أن أنبه هنا إلى خطأ وقع فيه بعض الباحثين وهو توهمهم أن الصهريج تم نقله إلى مكانه الحالي، وأغلب الظن أن الذي اضطرهم إلى هذا الزعم أنه في سنة (١٩٦٢م) تم شق طريق صلاح سالم، فأحدث ذلك تغيرًا كبيرًا في هيئة المنطقة التي يقع فيها الصهريج. وقد أزيلت العدوة الصاعدة للصهريج تبعًا لذلك، ووسع هذا الطريق في ثمانينيات القرن الماضي حتى شمل كل المسافة ما بين برج المبلط وصهريج يعقوب شاه المهمندار؛ ومن ثم صار المبنى يشرف تمامًا على الشارع المذكور؛ أما من الجهة الشرقية خلف المبنى فيوجد طريق السكة الحديدية (العباسية – طرة) الذي أنشئ سنة (١٨٦٣م). وبعد إنشاء طريق الأوتوستراد في تسعينيات القرن الماضي في الجانب الشرقي، عزل الصهريج وصار محصورًا بين شارع صلاح سالم وسكة الحديد العباسية طرة، كل هذا أدى ببعض الباحثين أن يتوهموا أن الصهريج غريب في موقعه؛ وأنه تم نقله إلى مكانه الحالي عند شق طريق صلاح سالم[٢٥]، بل أسرف بعضهم أيضًا فقرروا أن الصهريج كان يقع ناحية القلعة أمام برج المبلط[٢٦].

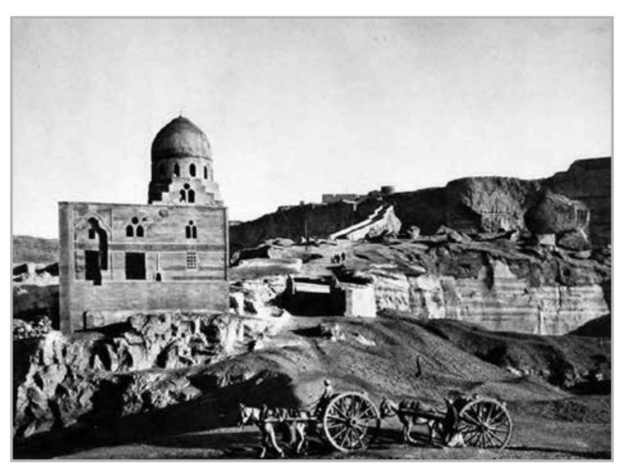
ولكن يظهر من الصور الزيتية القديمة التي رسمها المستشرقون لهذه المنطقة ومن الصور الفوتوغرافية التي التقطت لهذا المكان في أوائل القرن الماضي أن الصهريج لم ينقل من مكانه، هذا يظهر من خلال لوحتين زيتيتين للرسام الفرنسي جيمس تيسو James Tissot (١٨٣٦-١٩٠٢م) مصونتين في متحف بروكلين بالولايات المتحدة؛ الأولى تسمى «منظر للمقطم أمام القلعة» (-Le Mokatam au dessus dela Citadelle du Caire) يظهر بها جبل المقطم والطريق الصاعد لطابية محمد علي، وهذا الصهريج قبل الترميم بحالة متداعية به تصدع في واجهته بحيث صار بها نقب كبير، وتبدو أيضًا النقوب في رقبة القبة (لوحة ٨)[٢٧]؛ كأن معركة بالمدافع دارت هناك؛ أما اللوحة الثانية المصونة بالمتحف نفسه المذكور، فهي بعنوان «منظر للقلعة من المقطم» (La citadelle du Caire Prise du Mokatam) تصور منظرًا علويًّا للقلعة وما حولها والطريق الصاعد لطابية محمد علي، وهذا الصهريج من الخلف ويظهر به دركاة المبنى متداعية ومكشوفة من الناحية الشرقية، وبها أنقاض كثيرة (لوحة ٩)[٢٨]؛ وهو الأمر الذي تؤكده أيضًا صور فوتوغرافية عديدة التقطت في أوائل القرن الماضي، منشورة في مواقع الشبكة الدولية للمعلومات (الإنترنت) (لوحة ١٠، ١١)[٢٩].

دراسة النقش من ناحية المضمون

إن هذا النقش المكتوب بالنثر- أسلوب صياغة النقوش الكتابية في العصر المملوكي، والنثر في مثل هذه الأمور أرفع من الشعر وأعلى رتبة وأشرف مقامًا؛ وذلك لأن ألفاظ النثر تكون تابعة للمعنى؛ في حين يلجأ الشاعر في شعره إلى التأخير والتقديم واللغز والإبهام وغيرها من ضرورات الشعر[٣٠] - يرجح أن يكون ناثره يعقوب شاه المهمندار نفسه لخلفيته الأدبية والمهنية؛ فقد عمل مترجمًا وقارئًا للكتب الواردة من ملوك الترك والفرس والهند منذ سنة (٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م) ثم مهمندارًا، ثم كبيرًا للمهمندارية[٣١]، وفوق ذلك كله كان ضليعًا في اللغة العربية وناظمًا للشعر كما هو ثابت من البيتين المنقوشين على واجهة الصهريج. وشيء آخر



(لوحة ٨) لوحة زيتية للرسام الفرنسي جيمس تيسو (١٨٣٦-١٩٠٢م) محفوظة في متحف بروكلين تظهر صهريج يعقوب شاه المهمندار قبل ترميمها ن قبل لجنة حفظ الآثار العربية في نهاية القرن التاسع عشر.



(لوحة ١٠) الصهريج بعد ترميم لجنة حفظ الآثار العربية في نهاية القرن التاسع عشر عن صفحة فوتغرافيا مصر على موقع فيس بوك:



(لوحة ٩) لوحة زيتية للرسام الفرنسي جيمس تيسو (١٨٣٦-١٩٠٢م) تظهر صهريج يعقوب شاه المهمندار من فوق المقطم قبل ترميمها ن قبل لجنة حفظ الآثار العربية في نهاية القرن التاسع عشر.



(لوحة ١١) الصهريج بعد ترميم لجنة حفظ الآثار العربية في نهاية القرن التاسع عشر عن: صفحة فوتغرافيا مصر على موقع فيس بوك.

يعضد هذا الاحتمال هو ورود عبارة (تراب الأقدام) وهي عبارة التواضع في اللغة الفارسية (خاك پاها)؛[٣٤] وهي لا شك من العبارات التي كانت مألوفة لديه؛ فهو شخص كان لديه ثقافة فارسية إذ نشأ في تلك البقاع وتعلم فيها.

ولسنا في حاجة أن نناقش فضل النقش الكتابي وأهميته التاريخية والآثارية، فبدونه يضحى المبنى مجردًا أبكم لا يكاد يبين أو يفصح عن شيء، وليس غريبًا أن القيمة الآثارية للمبنى في ظل وجود هذا النقش الفريد بلغت شأوًا كبيرًا رغم صغر المبنى النسبي، ولولا شيء من التحفظ والاحتياط، لقلت إن قيمة هذا المبنى مع هذا النقش فاقت كثيرًا من الآثار المملوكية الضخمة ومتكاملة الأجزاء. ورغم ما تمثله القبة التي تتوج هذا البناء من رمز ديني، فإنها أيضًا بدون هذا النقش تعد مجرد قبة مجهولة في منطقة معزولة؛ وأكبر الظن أن النقش هو الذي حمل أعضاء لجنة

حفظ الآثار العربية على صيانة وحفظ هذا المبنى وتسجيله ضمن الآثار الخليقة بالحفظ والحماية والصيانة.

وقد بدأ النقش بمقدمة حوت نعوتًا للمنشئ تدل على التواضع والقصد، وألفاظًا نعت بها السلطان تدل على التعظيم والتفخيم والثناء والدعاء، وهو تضاد مقصود مراده التقرب للسلطان بالتواضع له وبمصانعته. كذلك أوضح النقش وظيفة المبنى ومكوناته وتاريخ بنائه، ونعت السلطان قايتباي بأجل الألقاب كلقب خادم الحرمين الشريفين والخاقاني والفغفوري والفريدوني[٣٣] والألقاب الثلاثة الأخيرة ترد في النقوش لأول مرة. ومن الحق أن نلاحظ أن الإطناب صفة نقوش تلك الفترة[٣٤]. والبواعث إلى هذا الإطناب والتزيد فيه كثيرة؛ فالسلطان قايتباي جدد شباب الدولة وهو الذي أعاد هيبتها بعد ضعف واضطراب ونكبات، فبالسلطان قايتباي أدركت مصر ضالتها من الحكام الراشدين، إذ فاق قايتباي أقرانه من الملوك بالعلم والعمل والفروسية، وهو مع كل ذلك رجل دين تقي، حتى قال عنه السخاوي: «إنه ترك الالتفات الكلي للزوجات والسراريّ؛ استبقاء لقوته في الغزوات والبراري، وأنه صار هو الأسد الضرغام والفارس البطل الرامي الذي لا يجارى»[٣٥]. وقال فيه أيضًا: «وبالجملة فلم يجتمع لملك ممن أدركناه ما اجتمع له ولا حوى من الحذق والذكاء والمحاسن مجمل ما اشتمل عليه ولا مفصله»[٣٦].

وفي ذلك الزمان الذي كانت الفروق فيه بين السياسة والدين تكاد تكون ملغاة؛ نجد هذا النقش يركز في أجمل ما كان يمدح به سلاطين المماليك من أنهم خدام الحرمين الشريفين، ويذكر أعمال السلطان قايتباي المعمارية في مدن المسلمين المقدسة الثلاثة: مكة والمدينة والقدس؛ حيث قام السلطان بإجراء عين عرفة بمكة من منبعها في الطائف وإيصالها إلى منطقة منى؛ وكانت معطلة منذ أكثر من مائة وخمسين سنة؛ كما أجرى عين بيت المقدس المعروفة بقناة السبيل أو قناة العروب وكانت معطلة كذلك؛ كما عمّر السلطان مسجد الخيف في منى بمكة المكرمة؛ وكان قد تهدم بفعل سيل جارف فعمله على أحسن ما يكون. وكذلك أجرى إصلاحات جوهرية بالمسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة، ثم لما تعرض المسجد النبوي نفسه لحريق بعد التجديد المذكور أعاد تجديده تجديدًا شاملًا.

وأجمل من هذا وذاك الرسالة الإعلامية والدعاية الحربية؛ حيث أكد النقش تفاني المماليك - سلاطين وأمراء - في الزود عن الدين والذمار والوطن، فذكّر الناس بانتصار المماليك الحاسم على العثمانيين في معركة أضنة (أدنة) سنة (٨٩١هـ/ ١٤٨٦م)؛ هذا النصر الذي لن يستطيع التاريخ نسيانه أو العدوان عليه، وأشار النقش أيضًا إلى أطراف من بأس المماليك في القتال، وقدرتهم العالية في نزال الأعداء بأسلوب أقرب إلى الغناء منه إلى السرد. وكل ذلك من شأنه إدخال السرور إلى القلوب والشعور بالفخر بذكرى هذا النصر الكبير؛ فيكون دافعًا لاستنهاض الهمم ورفع الروح المعنوية، وغاية هذه الرسالة أن المماليك هم الأجدر والأقوى من بين حكام الشرق.

ورغبة من كاتب النص في إبراز أهمية الموضوع وتعظيم قيمة النصر وأثره وجعله موضع الإعجاب، ذكر ضروب البطولات وزاد فيها، ولجأ إلى الإطالة والتفصيل، والتزم نسق أدب الملاحم حتى اقترب بالحادثة إلى الخوارق والمعجزات؛ فوصف المعركة لما حمي وطيسها وصفًا نابضًا، وصور اللحظة التي مال فيها النصر لجانب المماليك؛ وكيف انتهت المعركة بمذبحة بشعة انتشر فيها قتلى العدو في الفيافي والوديان حتى شبعت الضواري الجوارح من لحوم القتلى. وهام واضع النص جذلًا وهو يصف يوم عودة الجيش المنصور إلى القاهرة وما رافق ذلك من مظاهر الفرح والسرور؛ حيث يرسف الأسرى في قيودهم وصناجقهم مهانة مقلوبة منكسة وطبولهم مخروقة، والفيء الذي حازه الجيش لا يحصى كمًا وكيفًا، تالله إنه ليوم عظيم ما ورخ مثله في التواريخ الأول.

ومن جذل التغني بالنصر جمع الناثر ضدين من الطيور الجارحة وضدين من الحيوانات المفترسة في مكان واحد وهي تأكل جثث صرعى العثمانيين؛ وهي النسور والعقبان والضباع والذئاب؛ وهي أضداد لا تجتمع في الواقع في مكان واحد أو آن واحد، اللّهُمَّ إلا إذا كان ذلك في تتابع زمني؛ كأن يأتي نوع يأكل ويشبع ثم يأتي نوع آخر، أو تكون الأرض

التي دارت فيها رحى المعركة أرضًا شاسعة؛ فهو جمع بين الضباع والذئاب وهما يطرد بعضهما بعضًا، وأوكل الذئاب لحوم القتلى، وهي في الواقع تأكل فرائسها طازجة؛ بل لا تأكل الجيف إلا إذا شارفت على الهلاك؛ بعكس الضباع التي لا تتأفف من أكل الموتى؛ بل تكاد الجيف تكون طعامها الأثير. كذلك جمع الناثر بين العقبان والنسور على تلك الجثث، والعقبان في الحقيقة تخيف النسور وتجعلها تهجر مناطقها هجرًا، ثم أطعم العقبان لحوم القتلى وهي لا تأكل إلا صيدًا طازجًا، بل يقال إن العقبان تظل صائمة إن لم تجد فريسة تصيدها، بعكس النسور التي تأكل الجيف، بل يقال إنها إن شمت رائحة طيبة ماتت على الفور[٣٧].

ويلفت النظر كتابة لفظ الجلالة بحجم كبير فوق فتحة الباب؛ وهو ما يؤكد أن المنشئ يرجو وجه الله تعالى ببنائه هذا البناء، وأن الولوج للمبنى من الباب تحت لفظ الجلالة علامة أنه طريق الله وسبيله؛ ولا يخفى قرب العلاقة بين السبيل والصهريج من حيث الوظيفة كما نوه الشاعر بذلك بقوله:

سبيل إلى الله مـالي سبيل
فسبلت مـاءً لعلي أرتجي

سوى الظن بالله ظن جميل
سبيل إلى اللـه خير السبيل[٣٨].

وتعظيمًا للسلطان قام الخطاط بحذف اسم قايتباي من الشريط الكتابي، ووضعه في أعلى منتصف الواجهة في قرص مستدير مؤطر بارز عن سمت الواجهة. وأغلب الظن أن وجود اسم السلطان منفردًا في أعلى الواجهة قد حمل من لم يسعفهم الوقت لقراءة كامل النقش على نسبة المبنى إلى السلطان، ظنًا منهم أنه يمثل رنكًا كتابيًا للسلطان قايتباي. وقد حملنا هذا الظن على فهم كلام السخاوي حين عدد منشآت السلطان قايتباي أنه قصد هذا الصهريج فقال: «وبنى (أي قايتباي) سبيلًا عند مقطع الحجارين من جبل المقطم بالقرب من القلعة مع مسجد هناك»[٣٩].

وفيما يلي عرض لموضوعات النقش:

الألقاب

يلفت النظر في هذا النقش الإسراف في الألقاب الممنوحة للسلطان قايتباي؛ وحقيقة فإن هذا النقش يشبه نقش تأسيس وكالة قايتباي بباب النصر بالقاهرة (٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م). والذي يهمنا هو ورود لقبين لأول مرة في النقوش المملوكية، وهما لقبا الفغفوري ولقب الفريدوني.

لقب الفغفوري

نسبة إلى فغفور أو فغبور؛ وهو لقب عرف به ملوك الصين القدامى. ويقال هي كلمة مركبة من (فغ أي الرب وفور أي الابن) ومعناها ابن الله؛ وذلك أن الصينيين كانوا يعتقدون أن لملوكهم نسبًا إلهيًا، ثم أصبح هذا اللقب يطلق على كل متعلق لملك الصين والدول التي تأثرت بحضارتهم في وسط آسيا؛ فيقال مثلًا (جاما فغفوري) أي القدح السلطاني، ثم أطلق على الآنية الخزفية الرقيقة الأصلية التي تجلب من الصين كأنها صنعت لملك الصين؛ وقد تحرف إلى (فرفوري)[٤٠].

لقب الفريدوني

نسبة إلى أفريدون العظيم الذي يعتبر من أهم أبطال الأساطير الإيرانية، الذين خلدتهم شاهنامة الفردوسي؛ فقد سجلت قصته في ١١٥١ بيتًا، وينسب إليه استرداد ملك إيران من الملك الضحاك ذلك الملك الحميري الذي اتصف بالجبروت وسفك الدماء. وقد استطاع أفريدون غزو مُلك الضحاك والقبض عليه وتقييده وحبسه في جبل دماوند. وينسب إلى أفريدون أيضًا إحياء المجد الإيراني وإحياء ملك جمشيد؛ وقد اتسع ملكه حتى شمل العالم القديم تقريبًا[٤١]. ويعتبر أفريدون أهم أبطال القومية الإيرانية، بل يشغل حيزًا كبيرًا في الوعي الجمعي الإيراني؛ لذا يتسمى به كثير من أبنائهم، وقد ورد في شعر كثير من الشعراء العرب فضلًا عن الإيرانيين. فبديع الزمان الهمداني يصف السلطان محمود الغزنوي بقوله:

أأفريدون في التاج أم الاسكندر الثاني؟[٤٢]

موقعة أضنة (أدنة) (٨٩١هـ/ ١٤٤٦م)

سجل النقش فصلًا من فصول الصراع السياسي بين الدولة المملوكية والدولة العثمانية، فقد استحوذ الحديث في النقش عن معركة أضنة التي دارت رحاها سنة (٨٩١هـ/ ١٤٤٦م) ما يزيد على نص مقداره؛ وهو ما يدل على أنه الحدث الأهم والمقصود الأسمى والرسالة الأبلغ التي من أجلها كتب النقش. ونظرة فاحصة إلى المساحة المخصصة للحديث عن المعركة بالنقش نجدها تشغل نصف مساحة النقش تقريبًا في ٧٠ كلمة من أصل ١٣٥ كلمة، وخصص الباقي للمنشئ ونوع المبنى ومكوناته وذكر السلطان وألقابه ومآثره بمكة والمدينة والقدس. وقد مجد النقش نصر الجيش المملوكي بقيادة الأمير أزبك من ططخ على الأتراك العثمانيين؛ وصور نكبة وفداحة الجيش العثماني بقيادة أحمد باشا هرسك زاده إلى حد الإغراق. وهي معركة لها ما قبلها ولها ما بعدها، ودارت في الفيافي الواسعة والجبال الملتوية ذات الزوايا والحنايا الواقعة بين أضنة وطرسوس في يوم قرت له العيون.

تبدأ أحداث التوتر بين المماليك والعثمانيين حين توجس المماليك خيفة من تنامي قوة العثمانيين بعد فتح القسطنطينية؛ وتأرجح ولاء إمارة دلغادر (ذو القادر) تلك الولاية الحدودية المشمولة بحماية الدولة المملوكية - تارة يوالون المماليك وتارة يوالون العثمانيين. وقد صاهر الأمير سليمان بن محمد بن دلغادر السلطان؛ فزوج ابنته لفاتح القسطنطينية السلطان محمد أبو الفتوح. ورغم تولي شاه بوداق بن سليمان بن دلغادر الإمارة بعد أبيه بتفويض من قبل السلطان المملوكي خشقدم؛ فإن محمد أبو الفتوح أصدر فرمانًا لأخيه شاه سوار بن سليمان ليتولى الإمارة، وبالفعل تغلب شاه سوار على أخيه وناصب الدولة المملوكية العداء بدعم من العثمانيين، واستطاع هزيمة الجيش المملوكي ثلاث مرات متتابعة؛ وهو ما نال من هيبة الدولة؛ فانطلقت الألسن بذكر ذلك بالتلميح وبالتصريح. وأخيرًا استطاع الأمير يشبك بن مهدي هزيمة شاه سوار وقبض عليه بالحيلة؛ وسيق إلى القاهرة حيث شنق على باب زويلة[٤٣]، وحزن العثمانيون على موت حليفهم شاه سوار بتلك الموتة الشنيعة.

وفي الوقت نفسه لم تقف الدولة المملوكية مكتوفة الأيدي إزاء تدخل العثمانيين؛ فقد ساندت حكام إمارة بني قرمان أعداء العثمانيون، وحاول السلطان قايتباي استغلال العداء الذي نشب بين أولاد السلطان محمد الفاتح فساند الأمير جم أو (جمجمة) ضد أخيه السلطان بايزيد، وآواه هو وزوجته وأطفاله وعامله معاملة الملوك[٤٤]، وهذا ما أثار غضب بايزيد، ولكن الأمير جم هُزم أمام بايزيد، هزيمة منكرة؛ فانتقم له السلطان قايتباي بمنع قافلة الحج العثمانية، واستولى أيضًا على هدايا مرسلة إلى بايزيد من قبل أحد ملوك الهند، وهكذا صار الصدام العلني حتميًّا، فاتخذ بايزيد موقفًا عدائيًّا صريحًا بتحالفه عسكريًّا مع علاء الدولة بن دلغادر وتمكن علاء الدولة من الاستيلاء على ملطية سنة (٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م)، وهزيمة الحملة المملوكية المجردة له سنة (٨٨٩هـ/ ١٤٨٤م)، ثم استطاع الأمير المملوكي تمراز الشمسي هزيمة العثمانيين والدلغادريين واستولى على أعلامهم ومتاعهم[٤٥]. وفي الوقت نفسه استرد العثمانيين مدينتي طرسوس وأضنة، ثم قاموا بالاستيلاء على قلعة كولك سنة (٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م)، فأرسل السلطان قايتباي سنة (٨٩١هـ/ ١٤٨٦م) حملة تعد الأكبر من نوعها بقيادة الأمير أزبك من ططخ؛ ووقعت الموقعة التي تحدث عنها النقش[٤٦].

وفي أرض المعركة استعرض الأمير أزبك سائر عساكره وهم بالعدد الكاملة فكان أمرًا مهولًا؛ وكانت صناجق السلطان الحمر حينئذٍ ترفرف خفاقة؛ وحولها المماليك السلطانيون يلبسون الخوذ الصفر الذهبية في هيبة كبيرة، وصوت الطبول والموسيقى الحربية تجعلهم ينتشون وتدعوهم إلى خوض الأهوال؛ أما قلوبهم فكانت مفعمة بالشجاعة التي تغني عن حصانة الدروع. وحين نشبت المعركة هجمت العساكر المملوكية على العثمانيين وحملوا عليهم حملة رجل واحد كالأسود الضراغم، وانصبوا بالخيل عليهم كانصباب السيل من علٍ، ثم أخذوهم من جميع أقطارهم. وكان الأمير أزبك من ططخ قائد الجيش يصيح ويزأر كالأسد ويخوض الأهوال ويقاتل مخلصًا تحت شاليش السلطان (لواء)، فيموت في يمينه الحسام بعد الحسام، وينفق تحت عزائمه الجواد تلو الجواد، لذا أظهر جنوده الأشاوس استماتة في القتال وصبرًا على المشقات وتحمل الأهوال، حتى صار لا

يسمع سوى التكبير وصليل السيوف وضجر الحديد من الحديد وطنين القسي وقراع الرماح وصراخ الصرعى.

ورأى العثمانيون الموت يأتيهم من كل مكان، وأنهم إن ثبتوا حُكم عليهم بالفناء؛ فزاغت أبصارهم وملأ الرعب قلوبهم وآل أمرهم إلى الخوار والإدبار، فلووا أعناق خيولهم وأخذوا في الفرار كحُمر مستنفرة فرت من قسورة، وامتلأت نفوس عساكر المماليك غبطة وسرورًا عندما رأوا جيش العدو يتقهقر أمامهم؛ ثم أحيط بقائدهم أحمد باشا هرسك زاده وسيق إلى مصر هو ومن معه من أعيان الأمراء وأخذت أعلامهم وكانت نحوًا من مائة وعشرين راية[٤٧]. وكانت مجزرة بشعة، حتى إن المؤرخ ابن إياس بالغ وقال إن عدد قتلاهم بلغ ما يقارب أربعين ألفًا، وأخذ العسكر في النهب والغنائم ما لا يحصى من الخيول والسلاح والمتاع[٤٨]؛ أما أشلاؤهم فقد انتشرت على السفوح والوديان وتلونت الأرض بلون أحمر قانٍ، وشبعت من قتلاهم الحيوانات الضارية والطيور البرية المفترسة.

وحين هدأت المعركة وانجلى الغبار، أرسلت رءوس القتلى التي تزيد على مائتي رأس مغروسة في أسنة الرماح ليطاف بها في المدن كآية من آيات النصر ورمز من رموزه. ولهذا الغرض زينت القاهرة لذلك الحدث زينة حافلة[٤٩]، وانتظر الناس عودة الجيش المنتصر بصبر فارغ، وأمر السلطان بتبييض بابي النصر وزويلة وضرب الرنوك عليهما بلون الذهب. ووصل موكب الأمير أزبك المنتصر إلى القاهرة في شهر ذي القعدة سنة (٨٩١هـ/ ١٤٤٦م)؛ يسوق الأسرى مشاة أمامه، وهم مقيدون بالسلاسل ومكبلون بالأغلال في ذلة ومهانة، وأمامهم أعلامهم منكسة ومهانة، تدوس عليها الدواب ويهان اسم سلطانهم المرقوم عليها. وسيق أحمد باشا ابن هرسك قائد الجيش العثماني إلى القلعة وهو يركب فرسًا أعرج والغل يحيط برقبته والزناجير في يديه والقيود تعض قدميه وتدميها. لقد ارتجت القاهرة لهذا الحدث؛ واجتمع للفرجة خلائق لا تحصى، وكان إحضار الأسرى والأعلام علامة على جدارة الملك وتأكيدًا للنصر وترسيخًا للفكرة[٥٠].

أما في القلعة فقد نصبت الزينات، ودقت البشائر بالحوش السلطاني، وخلقت أعمدة مقعد السلطان بالطيب والزعفران، وتزاحم الناس والمماليك، ووقف أرباب الدولة كلٌ في منزلته على العادة، وفي أثناء ذلك كانت الطبول تدق والأوزان تضرب والجاويشية تصيح والشبانة السلطانية تزعق، هذا مع ما فيه الناس من تهليل وتكبير ولهجت ألسنتهم بالحمد والثناء، فمن قائل: «يالعدالة السماء، القوة مع الحق»، من قائل: «أعفانا الله من خزي ابن عثمان».

ولقد جلس السلطان قايتباي في المقعد مهيب الهامة يعلو وجهه الفخامة، يضع يده على مقبض سيفه، وعليه عزة الفاتح وإعجاب الناجح ونشوة المنتصر، وحوله الأمراء والخاصكية قد اشرأبت أعناقهم، وجعلوا يعانقون الأمير أزبك ويشدون على يده ويظهرون الفرح والسرور، يقولون «أحسنت يا باش»؛ وهو يتلفت ليصافح هذا ويلوح بيده لمن لا يتمكن من المصافحة في الزحام، ويرفع رأسه تيهًا وعجبًا ويزاحم بمنكبيه أجرام السماء؛ ثم وزعت الخلع على الغزاة، وعرض الأسرى في أول الحفل وفي آخره إمعانًا في الإذلال، ولم تسعهم السجون فوزعوهم على الأعيان والقضاء.

ولكن هذا النصر لم يحسم الصراع بين المماليك والعثمانيين، فقد نشب القتال بين الجيشين بعد ذلك مرتين سنة ٨٩٣هـ وسنة ٨٩٥هـ؛ حاول فيهما بايزيد استرداد هيبة دولته، فجهز جيشًا تلو الآخر يدفعه اليأس كما يدفع المقامر، ولكن النصر الحاسم مرة تلو الأخرى كان إلى جانب المماليك، واستردت قلعة كولك بالقوة كما سلبت بها، وظل وسطاء السلام يترددون بين الطرفين حتى توج عقد الصلح بين الطرفين سنة (٨٩٦هـ/ ٩٠-١٤٩١م)[٥١].

أحمد باشا ابن هرسك قائد الجيش العثماني

ورد ذكره في النقش، هو من أكابر وزراء الدولة العثمانية، تولى الوزارة العظمى أربع مرات في عصر السلطان بايزيد الثاني وعصر السلطان سليم الأول. ومن حيث عدد السنوات فقد شغل منصب الصدارة سبع سنوات متفرقات. هو من قومية الهرسك اعتنق الإسلام في شبابه، ودخل في

خدمة السلطان محمد الفاتح، وعند وفاة محمد الفاتح كان المذكور في وظيفة أمير أمراء الأناضول. وقد بذل جهدًا كبيرًا في دفع الاضطرابات والقلاقل التي حدثت في بداية حكم السلطان بايزيد الثاني، ونال شرف مصاهرة السلطان، كما عين قائدًا في الحرب التي وقعت بين العثمانيين والمماليك الجراكسة في مصر، وبعد أن بذل شجاعة منقطعة النظير في الحرب، جُرح وسقط أسيرًا وسيق إلى القاهرة[٥٢].

وقد أطلق السلطان قايتباي سراحه بعد مدة كبادرة لحسن النيات وطلبًا للصلح، وعاد المذكور إلى دار السعادة ونال الصدارة العظمى من جديد سنة (٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م)، ثم عزل بعد سنة من وظيفته. وكلفه السلطان بفتح منطقة إينه بختي، فتمكن من فتحها مع بعض الأماكن والقلاع هناك. وولاه السلطان بايزيد قيادة الأسطول وانتصر على الأسطول الإفرنجي أمام جزيرة مدللي في بحر إيجة سنة (٩٠٧هـ/ ١٥٠١م)، وتم تعيينه في الصدارة مرة أخرى سنة (٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م)، واستمر بها ثلاث سنوات، ثم عزل سنة (٩١٢هـ/ ١٥٠٦م) مرة أخرى، ولكنه عاد فعين مرة أخرى سنة (٩١٧هـ/ ١٥١١م)، واستمر في الصدارة ستة أشهر فقط. وعند حدوث الاضطرابات في نهاية عصر بايزيد الثاني قامت فرقة الانكشارية بالهجوم على مقره ونهبوه وهرب منهم. وعند جلوس السلطان سليم الأول على العرش عينه للصدارة العظمى للمرة الرابعة سنة (٩١٨هـ/ ١٩١٢م)، واستمر بها سنتين ونصفًا، ونال إعجاب السلطان في إدارته الحرب ضد إيران، ثم عزل من الصدارة سنة (٩٢٠هـ/ ١٥١٤م)، وعندما توجه السلطان سليم لفتح مصر والشام تم تعيينه قائم مقام بروسه وتوفي بعدها. له مجمع معماري في يلوا، يتكون من جامع وحمام وسبيل، أوقف عليه أراضي ومزارع في الأناضول وخانًا، وله جامع في كاشان[٥٣].

الحوش السلطاني بقلعة القاهرة

ورد ذكر هذا الحوش في النقش الذي نحن بصدده حين ذكر مجيء الأسرى العثمانيين وقائد جيشهم أحمد باشا هرسك زاده. يقصد بالحوش الساحة والتحويطة أو الفناء المسور، ويطلق في مصر على فناء الدار وصحن المسجد، ويأتي بمعنى الساحة المكشوفة التي تلحق بالمدافن[٥٤]؛ ولكثرة الاستخدام غلب على المدفن كله الذي يحتوي على أكثر من فسقية وأكثر من قبر؛ أما في قلعة القاهرة فيطلق على المنطقة المسورة المنخفضة التي تقع جنوب وجنوب غرب جامع الناصر محمد بن قلاون والإيوان الناصري (حاليًا جامع محمد علي). وهي المنطقة المنخفضة التي تطل على القرافة، ويقع بها الآن قصر الجوهرة وسراي الكتخدا ودار الضرب وأنقاض سراي العدل، ويدخل إليها من باب الجبل.

ونشأ هذا المكان حين قطعت الأحجار من هذه المنطقة لبناء قاعات القلعة، فأصبحت غورًا عميقًا اتساعه أربعة فدادين، فأمر الناصر محمد بن قلاون سنة (٧٣٨هـ/ ٣٧-١٣٣٨م) بردمها وتسويتها، وندب لذلك الأمير آقبغا عبد الواحد ليكون شادًا للعمل وقسم المكان على الأمراء، وأحضر الأسرى وسخر الناس للعمل به. وكان الناصر محمد يتابع العمل فيه بنفسه حتى تم في ستة وثلاثين يومًا؛ وجعله الناصر حظيرة للأغنام والأبقار والطيور. وكان عدتها في هذا الحوش يوم وفاته ثلاثين ألفًا[٥٥]، وأحاطها الناصر بسور مزود بأبراج بقي منها ثلاثة أبراج مستديرة؛ ثم ما لبث أن أبطل السلطان الصالح إسماعيل حظيرة الغنم؛ وحول جزءًا كبيرًا من الحوش إلى بستان وعمل به نافورة وشاذروان؛ ثم أنشأ فيه سنة (٧٥٤هـ/ ١٣٤٥م) قاعة ملوكية أطلق عليها من فرط جمالها بالدهيشة؛ كانت تطل بشبابيكها على الحوش (اندثرت حاليًا)، ومكانها الآن المنطقة المرتفعة الواقعة جنوبي جامع محمد علي[٥٦]؛ وبذلك تحول الحوش إلى منتزه يضفي جمالًا على القلعة. وكان السلاطين يتريضون به ويستجمون فيه تحت شمس الشتاء الدافئة وليل الصيف الجميل، وقد قام الظاهر برقوق بعمل الاحتفال السنوي للمولد النبوي في هذا الحوش، ونصب خيمة كبيرة جلس فيها واصطف حوله حاشيته وأمامهم القراء والمنشدون والمداحون وآلاتية السماع الصوفي[٥٧]؛ ومن يومئذٍ صار هو المكان الرسمي للاحتفالات.

وقد استدعى اختيار الحوش كمكان للاحتفالات السلطانية إقامة مبانٍ فخمة دائمة لجلوس السلطان بها في المناسبات والاحتفالات والاستقبالات بدلًا من الخيام. فبنى المؤيد شيخ سنة (٨٢٢هـ/ ١٤١٩م) في النهاية الجنوبية

للحوش قبة عرفت بالبحرة أو قاعة البحرة تطل على القرافة[٥٨]، وكان جوارها حمام وخدمات تضم الطشتخانه ومخازن الخيم السلطانية، وقاعة البحرة هي القاعة التي بني على أنقاضها قصر الجوهرة في عصر محمد علي. وشيئًا فشيئًا ازدادت أهمية الحوش بعد إنشاء العمائر الفخمة وانتقل إليه العديد من المراسم كاستقبال السفراء واستعراض الجند وتوزيع جوامكهم فيه والاحتفال بالانتصارات وعرض الأسرى والمهزومين؛ حتى أضحى الحوش المحور الرئيس لإدارة السلطنة ومراسمها. وبسبب الاضطرابات بينه وبين المماليك الجلبان نقل إليه السلطان إينال وظائف القصر الأبلق والإيوان كافة، واحتفل فيه السلطان الأشرف برسباي بانتصاره على جينوس ملك قبرص وعرضه وهو مكبل بالقيود والأغلال، كما احتفل فيه السلطان قايتباي حين قبض على شاه سوار؛ وعرض فيه الأسرى العثمانيين وقائدهم أحمد باشا هرسك زاده حين انتصر على العثمانيين سنة (٨٩١هـ/ ١٤٨٦م)[٥٩].

وكان أكابر المماليك يلعبون الكرة بالحوش في أوقات الفراغ، وتقام فيه الخدمة؛ وهي عرض أرباب الوظائف بالملابس الرسمية المقررة لكل طائفة، فكان يقف به أكثر من مائة طائفة مختلفي الهيئات والملابس حتى إنه إذا لبس أحد من طائفة زي آخر من طائفة أخرى خرج عن الهندام. والهدف من العرض إظهار الهيبة والأبهة للدولة وعظمة السلطان وجنوده أمام السفراء والقصاد والتجار والأتباع[٦٠].

وأنشأ السلطان قايتباي عدة منشآت بالحوش، منها مقعد بالحوش جوار قاعة البحرة والقاعة المذكورة وأضاف إليها حجرات أمامها وجوارها، وأنشأ قاعات أخرى بالحوش، يقول السخاوي: «وعمر (أي قايتباي) إيوان القلعة مع قصرها ودهيشتها وحوشها وسائر جهاتها والبحرة وقاعتها والمقعد الذي يعلو بابها، وقصرًا هائلًا مشرفًا على القرافة، بل عمل علو أبواب الحوش قصرًا بحيث صارت القلعة في غاية البهجة».[٦١] وفي رواية أخرى يذكر ابن إياس عمائر السلطان قايتباي بالحوش «المقعد الذي هو داخل الحوش والمبيتين حوله والحواصل التي بجوار قاعة البحرة».[٦٢] ويذكر ابن الصيرفي في حوادث شهر ربيع الآخر سنة (٨٧٦هـ/ ١٤٧١م): «وأنشأ – نصره الله – (قايتباي) بالحوش السلطاني إلى جانب الدكة التي يجلس عليها مقعدًا عظيمًا؛ وهو مهتم به كاهتمامه بعمارة الإيوان الذي كان خربًا. وجاء (أي المقعد) في غاية الحسن من البناء الجليل والرخام الملون والأحجار العظيمة والذهب واللازورد وأمثال ذلك؛ ولعل مصروف هذه العمارة يصل إلى خمسين ألف دينار».[٦٣]

ويمكن تصور المقعد الذي أنشأه السلطان قايتباي ليجلس فيه ويشهد الاحتفالات وينام به في ليالي الصيف المقمرة كمقعد الأمير ماماي الموجود بالنحاسين مرتفعًا، والمكون من مصطبة يرتقى إليها بواسطة سلالم، وتغطى بسقف يتقدمه بائكة مكونة من أعمدة ترتكز عليها عقود، وكانت تعلق بها الستائر والزينات، وما زالت الأعمدة التي كانت تحمل سقف المقعد موجودة بالطابق الأرضي بقصر الجوهرة، وعليها رنك السلطان قايتباي بما نصه:

عز لمولانا السلطان الملك الأشرف قايتباي.

وقد قام السلطان قانصوه الغوري بإنشاء مقعد آخر سنة (٩١٥هـ/ ١٥٠٩م)، وعرف في العصر العثماني بديوان الغوري. وأقيم بالحوش خلال العصر العثماني كشك عرف بكشك بيرم باشا وآخر عرف بكشك إسماعيل باشا؛ كان مطلًا على عرب يسار، وبني به قصر يكن باشا سنة (١٢٠٠هـ/ ٨٥-١٧٨٦م)، ثم هدم محمد علي باشا أبنية الحوش المملوكية، وبنى مكانها قصر الجوهرة، وقصر الاستقبال، وديوان كتخدا سنة (١٢٢٧هـ/ ١٨١٢م)[٦٤].

عمارة عين عرفة على يد السلطان قايتباي

ورد ذكر هذا التجديد للعين في النقش الذي نحن بصدده، وتسمى هذه العين بعين زبيدة وعين وادي النعمان؛ وهي عين عذبة المياه تنبع عند ذيل جبل كرا؛ وهو جبل شاهق شرقي مكة على طريق الطائف، على بعد ٤٠ كيلو مترًا منها، تنحدر المياه من ذيل الجبل المذكور في قناة إلى موضع بوادي النعمان؛ يقال له الأوجر أو أرض حسان أو بلاد السبحي؛ وهناك نبع آخر بمزرعة العقم بوادي النعمان أيضًا.[٦٥] وقد تم إجراء العين عن طريق قناة روعي في بنائها

مناسيب الأراضي التي تمر بها من جبال ووديان وسهول؛ فتارة يكون سطحها مساويًا لسطح الأرض؛ وتارة يرتفع عنها بحيث قد يصل الارتفاع إلى سبعة أمتار؛ وتارة تسير في تخوم الأرض؛ أو على مقربة منها أو أبعد حسب ارتفاع وانخفاض وتفاوت الأرض، ولهذا تظهر القناة حينًا وتختفي حينًا آخر. ولها حوائط وقناطر ودعامات وزودت بخرزات (فتحتات) دائرية أو مربعة حال جريانها في تخوم الأرض، ويبلغ عرضها من الأعلى نحو المتر، وقد تزيد ويبلغ عرض فراغها ما بين ٥٠ و٦٠ سم، وعمقها مترًا ونصفًا، تزيد وتنقص حسب الحاجة؛ وعرضها في الأغلب ٦٠ سم، ويبلغ ارتفاع الماء في قاعها في الظروف الاعتيادية ٧٠ سم وقد يزيد أو ينقص. وعند سيرها على وجه الأرض تغطى بالحجارة وتزود بفتحات لنهل المياه منها، وأحيانًا يكون بجانب الفتحات أحواض لشرب الآدميين والحيوان.[٦٦] وقد عمل المعمار على تقوية القناة في مخرات السيول ومجاري الوديان بأسباب البناء المختلفة من جدر سميكة تصد وتدفع ماء السيل بعيدًا عنها، وكذا عمل فتحات وقناطر ودعمت بدعامات ساندة ودعامات أخرى تشق المياه وتشتتها[٦٧].

ونظرًا لقلة الماء بمكة عبر العصور، فقد كان أهلها فيما سلف يشربون من الآبار التي بداخلها أو خارجها، فلما كانت خلافة معاوية بن أبي سفيان؛ أجرى إلى مكة عشر عيون في قنوات، ثم تخربت هذه القنوات وانقطعت تلك العيون؛ فأصاب أهل مكة جهد جهيد ورجعوا إلى استعمال الآبار، ثم أمر الخليفة هارون الرشيد بإصلاح ما تخرب من العيون؛ ثم ما لبث أن انقطعت بعد ذلك، ولما بلغ ذلك السيدة أم جعفر زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد؛ وكانت من أهل الخير ولها مآثر عظيمة؛ لامت والي مكة وقالت له: «هلا كتبت إليّ حتى أسأل أمير المؤمنين أن يجعل ذلك لي فأقوم بالنفقة فيها حتى استتم ما نويت في أهل حرم الله». وأمرت بإجراء عين حنين إلى مكة، وإجراء عين وادي النعمان (عين عرفة) حتى أوصلتها إلى منى مرورًا بعرفات، وأنفقت على ذلك مليونًا وسبعمائة ألف دينار. وبعد إتمام العمل ذهب المباشرون إليها وأخرجوا لها دفاترهم لتراجع ما صرفوه؛ وكانت في قصر عالٍ مشرف على دجلة، فأخذت تلك الدفاتر وطرحتها في النهر، وقالت: «تركنا الحساب ليوم الحساب، فمن عنده بقية من المال فهو له ومن بقي له شيء عندنا أعطيناه، وألبستهم الخلع والتشاريف وخرجوا من عندها حامدين شاكرين».[٦٨]

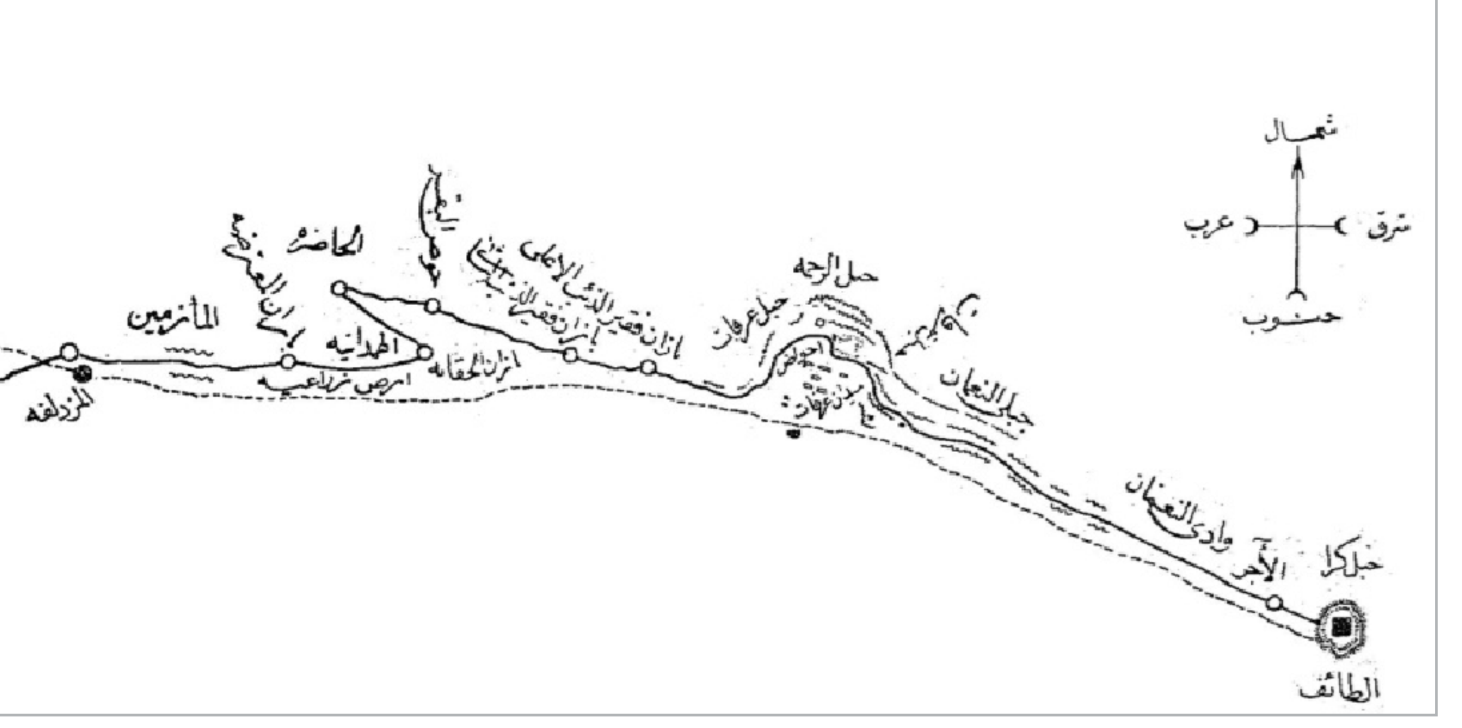
وقد تم إجراء عين عرفات في قناة من وادي النعمان (شكل ١٢) إلى موضع بين جبلين شاهقين في علو أرض عرفات؛ ثم دارت القناة بجبل الرحمة، وتفرع منها قنوات للبرك التي بأرض عرفات؛ حيث كان يوجد جوار جبل الرحمة ثمانية أحواض؛ كانت تنظف وتملأ قبل أوان الوقوف بعرفة؛ ثم تسير القناة نحو الشمال إلى بازان (سبيل أو حوض) فقير الذئب الأعلى؛ ثم إلى بازان فقير الذئب الثاني؛ ثم تدخل القناة وادي المغمس(عرنة)؛ ثم إلى حوض البقر(حوض لسقي الدواب)؛ ثم إلى أرض زراعية تسمى بالهمدانية أو القطانية؛ ثم تسير إلى بازان الحقابة؛ ثم إلى بازان المعترضة؛ ثم إلى سفح المأزمين؛ ثم تسير إلى بازان المزدلفة؛ ومنها إلى وادي النار، وفيها بازان جبل فم الوبر؛ ثم إلى المفجر بمنى؛ ومنها يأخذ مسجد الخيف مياهه؛ ثم تسير القناة إلى حوض البقر الثاني؛ ثم تسير تحت الأرض حتى تصل إلى بئر عظيمة حفرتها السيدة زبيدة؛ لتكون منتهى القناة يصب فيها فائض الماء. ومن هذه البئر كان السقاءون يأخذون الماء ويبيعونه بمكة، ومنها أيضًا سقيا شريف مكة والوالي وموظفو المحمل، ومكانها الحالي حديقة الطفل بالعزيزية[٦٩] (شكل ٧). وكانت السيدة زبيدة قد نوت إيصال هذه العين إلى مكة من الجهة الغربية، ولكن ارتفاع المنطقة وصلابة أحجارها حال دون ذلك، فجعلت نهاية العين بئر زبيدة المتقدم ذكرها. وقد استمر الحال كذلك حتى قامت السيدة فاطمة خاتون ابنة السلطان سليمان العثماني بإيصالها إلى مكة بعدما تكلفت أموالًا طائلة قدرت بنصف مليون دينار. واستمر العمل ما يقارب العشر سنين[٧٠].

ونظرًا لطبيعة الظروف الجوية لمنطقة مكة وقلة الأمطار، فقد كانت عين عرفة منذ تأسيسها تتهدم قناتها تارة وتخربها السيول الجارفة تارة أخرى، وكان الخلفاء وعمالهم والسلاطين ونوابهم والحكام وولاتهم عبر العصور إذا بلغهم أمر تعطلها

يرسلون من يعمرها[٧١]. فقد أمر الخليفة المتوكل على الله جعفر بن المعتصم بإرسال ١٠٠,٠٠٠ دينار لإصلاحها بعد زلزال ضرب مكة سنة (٢٤١هـ/ ٥٥-٨٥٦م)، وعمرت العين مرة أخرى سنة (٥٥٠هـ/ ١١٥٥م) في أيام الخليفة العباسي الناصر لدين الله؛ على يد الأمير الأسفهسلار زين الدين عمر؛ وكُتب بذلك حجر قرأه اللواء إبراهيم رفعت أمير المحمل المصري؛ كان موجودًا أسفل جبل الرحمة؛ وكذلك كُتب لوح رخامي يشير إلى حفر بئر بساحة عرفات. واهتم الوزير محمد بن علي بن أبي منصور المعروف بالجواد الأصفهاني بجلب الماء إلى عرفة، وعمل البرك والمصانع[٧٢]، وأجريت إصلاحات في عين عرفة أيضًا على يد الأمير الأسفهسلار مظفر الدين كجك كوكبوري صاحب إربل سنة (٥٨٤هـ/ ١١٨٨م)، طبقًا لما هو مكتوب على نقش أسفل جبل الرحمة قرأه اللواء إبراهيم رفعت. وأصلحت القناة أيضًا سنة (٦٢٥هـ/ ١١٢٨م) وعام (٦٢٧هـ/ ١١٣٠م) وعام (٦٣٣هـ/ ٣٥-١١٣٦م) كما هو ثابت بنقوش كتابية[٧٣]، وعمرت القناة أيضًا على يد الأمير جوبان والي العراق من قبل الملك الإيلخاني أبي سعيد خدا بنده ملك التتار سنة (٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م)؛ ثم أهملت القناة وانقطع ذكرها وتخربت وكان ماؤها ينقع أكثر من وصوله[٧٤]. وكان الناس في أثناء إقامتهم بمنى ويوم عرفة تصيبهم مشقة كبيرة من شدة العطش؛ وهو ما كاد يفضي إلى الهلاك، ويئس الناس من العين وفي رجوعها[٧٥].

إصلاحات السلطان قايتباي لعين عرفة

واستمرت العين معطلة داثرة ما يقرب من مائة وخمسين عامًا، بحيث لم يكن في أهل مكة من كبار السن من رآها أو سمع عنها[٧٦]. وقد حاول شريف مكة سنة (٨٢٥هـ/ ١٤٢٢م) إصلاحها فلم يستطع تحمل نفقاتها. ولما كان سنة (٨٧٥هـ/ ٧٠-١٤٧١م) أمر السلطان قايتباي الأمير شاهين الجمالي وأخاه سنقر الجمالي بعمارة عين عرفة؛ فابتدأ العمل بها في شهر ربيع الآخر من العام المذكور، وبدأ من أرض عرفات مشرقًا حتى بلغ وادي النعمان، فأصلح قناتها وأحواضها، وجدد صهاريجها، ورمم ما يحتاج إلى ترميم، وأبدل ما تشعث منها، ونظف مطمورها ورتق فتوقها، ودعم أساسها،

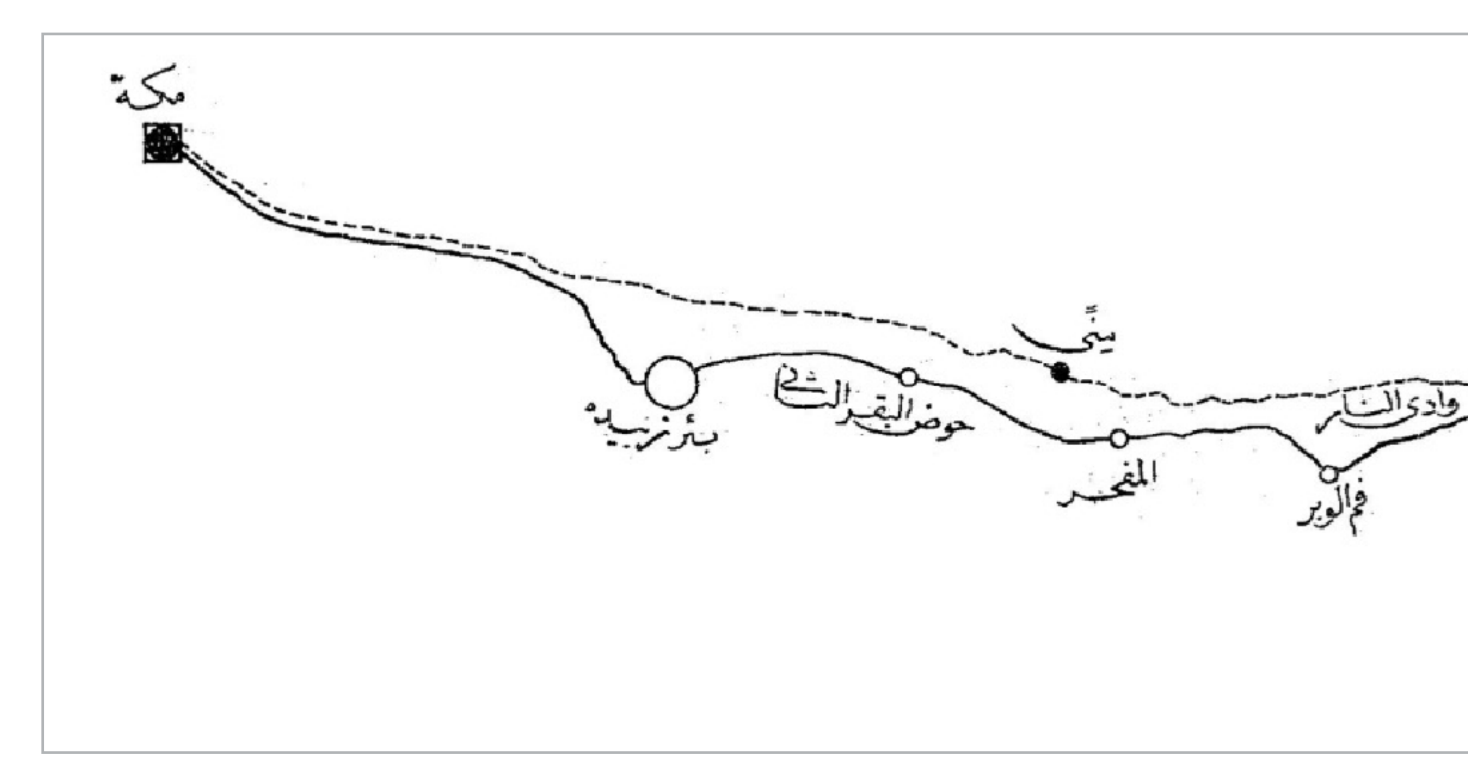


(شكل ٧) عين عرفة (أو عين زبيدة) والطريق التي تقطعها والأماكن التي تمر بها من منشئها في الطائف حتى وصولها عرفة ثم مكة، عن: إبراهيم رفعت (باشا)، مرآة الحرمين الجزء الأول خريطة ٨٠، ص ٢١٣.

وأعاد بناء القناة المحيطة بجبل الرحمة من جديد، وأصلح برك عرفات. وكان الناس يأملون وصول الماء إلى مكة، ولكن وعورة الجبال حالت دون ذلك، وفي الوقت نفسه تم تعمير عين خليص وبناء قبتها[٧٧].

وقد سجلت عمارة السلطان قايتباي لعين عرفة والبرك والملحقات على لوحين حجريين متطابقين في المضمون؛ كانا مثبتين على صخرتين أسفل جبل الرحمة. قرأ أحدهما اللواء إبراهيم رفعت ونشر صورة له[٧٨]، ثم قام الباحث محمد فهد الفعر بدراسته وتصحيح قراءته[٧٩]؛ أما النقش الثاني فقد نشره الباحث محمد أنور شكري[٨٠]؛ وهو مصون الآن بمتحف قسم الحضارة والنظم الإسلامية بجامعة أم القرى، والنقش الأول محفوظ حاليًا في المعسكر الكشفي التابع لإدارة التعليم بمكة في حي العزيزية، وهو عبارة عن لوح من البازلت أبعاده ٩٣ × ٣٠ سم، كتب بخط الثلث بالحفر البارز (لوحة ١٢)، ونصه كالتالي:

بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وبمنته تكمل المسرات وبتوفيقه تجرى الخيرات على يد من اختار من أهل السعادات وصلى الله وسلم على سيدنا محمد الذي نبع الماء من بين أصابعه في الأزمات وفتح الله تعالى به أعينًا عميًا وآذنًا صمًا وقلوبًا غلفًا وختم ببعثته الرسالات صلى الله وسلم عليه وصحبه أولي البر والصلات أزكى السلام وأفضل الصلاة وبعد فإن عين عرفة المشرفة كانت قد محي اسمها وتعطل رسمها وعفا أثرها ولم يبق إلا خبرها وهم كثير من الملوك والسلاطين بعمارتها فلم تساعدهم القدرة على مقاومتها ومضى على ذلك دهور ويئس منها لما أتى عليها من العصور فلما من الله على العباد بولاية من





(لوحة ١٢) نقش عمارة عين عرفة في عهد السلطان قايتباي، عن محمد فهد بن عبد الله الفعر (د.): الكتابات والنقوش في الحجاز في العصرين المملوكي والعثماني (لوحة ١٧).

صلحت به الرعية والبلاد وانحسمت بوجوده مواد الجور والفساد هو مولانا السلطان الأعظم مالك رقاب الأمم حاوي فضيلتي السيف والقلم ظل الله تعالى الممدود على العالم سلطان الإسلام والمسلمين قامع الكفرة والمشركين محي مآثر الخلفاء الراشدين ملك البرين والبحرين خادم الحرمين الشريفين السلطان المالك الملك الأشرف أبو النصر قايتباي نصره الله نصرًا عزيزًا وفتح له فتحًا قريبًا بمحمد صلى الله عليه وسلم برز أمره الشريف بإجرائها بتلك الأماكن المشرفة لوفد الله تعالي وإضيافه المباهي بهم الملائكة قربة إلى الله تعالى لا رياء فيها ولا امترا يجد ثوابها يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرًا فجرت بحمد الله تعالى وتوفيقه في أسرع مدة يقارب إحصاؤها أشهر العدة مع تنظيف قعرها وبناء مصانعها وبركها وعمل مشرعتها لنفع أهل الشريعة وبناء قناتها المحيطة بجبل رحمة الله الوسيعة فالله يجدد لمولانا السلطان في كل لحظة عزًا ونصرًا ويجري له على ما أجرى في الدارين أجرًا وذلك على يد الجنابين العاليين الأميرين الكبيرين شاهين الجمالي الأشرفي وشقيقه المباشر للعمل السيفي سنقر الجمالي الأشرفي أجزل الله تعالى ثوابهما وأحسن أملها في مدة أولها شهر ربيع الآخر وآخرها شهر رجب الفرد الحرام عام خمسة وسبعين وثمانيماية وصلى الله على سدنا محمد وآله وصحبه وسلم[٨١]

ولم يزل سلاطين العثمانيين يولون القناة اهتمامهم ويهرعون إلى تجديدها إذا ما أصابتها العوارض، وكان أهم مراحل تطور عين عرفة حين استطاعت فاطمة خاتون ابنة السلطان سليمان القانوني إيصالها إلى مكة عبر المنطقة الصخرية الصعبة[٨٢].

عمارة عين بيت المقدس على يد السلطان قايتباي

ورد ذكر هذه الإصلاحات في النقش الذي نحن بصدده. وتعرف هذه القناة بقناة السبيل أو قناة العروب؛ وتعد أهم مصدر مائي يغذي مدينة القدس منذ القدم، وإن شئت فقل هي شريان الحياة الرئيس، فضلًا عن أنها أطول مجرى مائي

بالقدس استغلالًا لنظام تجميع المياه من الينابيع المختلفة في منطقة العروب عبر قناة تسير مسافة ٦٨ كيلو مترًا من المنبع إلى منتهاها في الفساقي والأحواض والأسبلة[٨٣]. وهي ترفد معظم أسبلة المدينة الرئيسية، مثل: سبيل باب السلسلة، وسبيل المدرسة الأشرفية، وسبيل المتوضأ المعروف بالحنفية، وسبيل الكاس بالحرم القدسي الشريف، وسبيل متوضأ السادة الشافعية، وسبيل بركة النارنج (الشاذروان)، وسبيل باب القطانين المعروف بعين المحكمة، وسبيل باب الناظر، وسبيل تجاه باب الدوادية شمال الحرم، وسبيل تجاه باب الأسباط؛ ومنها مياه حمام تنكز، ومنها قسم لحمام الأسباط، وسبيل بركة السلطان خارج أسوار القدس[٨٤].

وقد بنيت القناة بثلاث طرق تبعًا لطبيعة المكان التي تمر فيه، ففي السهول والمناطق المكشوفة والمنخفضة بنيت بالحجر المكسو بطبقة ملاط قوية، وتكون مكشوفة وجوانبها بارزة عن سطح الأرض تتسع وتضيق وتلتف حول المناطق الصخرية والبلدات، وتغطى أحيانًا بكتل من الأحجار، ويبلغ عرض القناة في المتوسط ١٦٠ سم والعرض ٥٠ سم وعمقها ٧٠ سم؛ أما الطريقة الثانية فحفر مجراها في صخور الجبال، ويشتمل على معظم المجرى وتكون على سفوح الجبال وجوانب الأودية؛ والطريقة الثالثة فعبارة عن أنابيب فخارية تسير في تخوم الأرض، وذلك في المسافة بين برك سليمان حتى بيت لحم وفي داخل المدينة[٨٥].

بنيت القناة في الفترة الرومانية؛ حيث يجمع المؤرخون على أن بانيها هو بيلاطس في القرن الأول الميلادي، وأولاها بعد ذلك الأباطرة وولاتهم والخلفاء المسلمون وعمالهم والسلاطين ونوابهم عنايتهم عبر التاريخ. وقد أشار مجير الدين إلى اهتمام السلاطين المماليك بهذه القناة، منهم: الناصر محمد بن قلاون الذي عمرها فيما بين شهري شوال سنة (٧٢٧هـ/ سبتمبر ١٣٢٦م) حتى ربيع الأول من العام الذي يليه، كما أوقف الأمير بكتمر الجوكندار قرية (مجد فضيل) من أعمال مدينة الخليل على أوجه بر كثيرة أهمها قناة السبيل. وكان السلطان الظاهر أبو سعيد خشقدم قد شرع في عمارتها وعمارة البركة الشرقية من بركة المرجيع (العروب)، فتوفي السلطان ولم تتم عمارتها، واستمر العمل بها في أثناء حكمي السلطان يلباي والسلطان تمربغا، ولكن مدتهما لم تطل في الحكم؛ فلما ولي السلطان الأشرف قايتباي كتب أهل مدينة القدس من المشايخ والأعيان يسألونه إكمال عمارتها[٨٦].

وقد أرسل السلطان قايتباي في سنة (٨٧٤هـ/ ٦٩-١٤٧٠م) رجلًا من أهل الخير والصلاح يتميز بالعفة والشهامة، وهو ناصر الدين محمد بن النشاشيبي؛[٨٧] وذلك لدراسة حال أوقاف القدس وتعميرها ومنها بطبيعة الحال قناة عين السبيل. فقام بالعمل على خير وجه وعمر المسجد الأقصى وصرف الرواتب وأصلح قناة العين وأجرى ماءها إلى المدينة، فتباشر الناس وحصل الرخاء وعد ذلك من بركته. واحتفل المقدسيون بهذا الحدث، وعلقت الزينات بالمدينة ثلاثة أيام، ونقش بذلك رخامة ثبتت بحائط المدرسة الجالقية جوار درج عين القناة[٨٨].

وقد قام ان برشم بنشر قراءة النقش ونشر صورة له. وكان عبارة عن بلاطة رخامية أبعادها ١٣٠ سم × ٥٤ سم، تحتوي على ستة أسطر بخط الثلث المنفذ بالبارز؛ وقد تآكلت أجزاء من الجانب الأيمن من النقش (لوحة ١٣)، ونصه كالتالي:

الحمد لله الذي أفاض النعمة و[××××] جميل توفيقه تجديد عمارة مجرى المياه الواصلة إلى البيت المقد[س ××× في أيام مولانا المقر الشريف] سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين قامع البغاة [×××××××××××××× الملك] الأشرف أبو النصر قايتباي لازالت دولته العزيزة تنصر الإسلام [××××××××××××××××××] أصناف المثوبات صحائفه المكرمة مخلدة وذلك على يد العبد الفقير إلى الله تعالى ناصر الدين محمد ين النشاشيبي [××××] بجميل أفضاله وبلغه من كل خير منتهى آماله بمباشرة الزيني

قاسم كريم الشكر إليه (؟) أسبغ الله تعالى [××××× العـ]ـشر الأول من جمادي الآخر عام أربعة وسبعين وثماني ماية الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه[٨٩]

وحدث أن تضرر مجرى القناة مرة أخرى؛ فأمر السلطان قايتباي نائب دمشق الأمير قانصوه اليحياوي بالتوجه إلى القدس الشريف لعمارة العين؛ وأرسل له خمسة آلاف دينار، ألف نفقة له وأربعة آلاف للعمارة. فتوجه المذكور إلى القدس ومعه مائتا عامل، وشرع في العمارة، واستمر العمل خمسة أشهر[٩٠]؛ كما جددت قناة العين في العصر العثماني مرات عديدة وذكرها في هذا المقام يخرج عن القصد ويزيد[٩١].

عمارة السلطان قايتباي لمسجد الخيف

ورد ذكر هذه العمارة في النقش الذي نحن بصدده. والخيف هو ما ارتفع من الأرض من موضع مجرى السيل، وانحدر عن غلظ الجبل؛ والجمع أخياف وخيوف[٩٢]. ومسجد الخيف هو أحد المساجد المشهورة بمكة، يقع على سفح جبل السايح جنوب منى؛ على يمين القادم من مكة ويسار المقبل من عرفات على مقربة من الجمرة الصغرى. وكان هذا الموضع يسمى بخيف بني كنانة وخيف منى[٩٣]. وهو من المواضع المباركة التي ورد في فضلها أحاديث نبوية وروايات متواترة وأقوال مأثورة منسوبة إلى السلف الصالح، فقد أخرج الطبراني عن ابن عباس أن النبي قال: «صلى في مسجد الخيف سبعون نبيًا منهم موسى»، وقيل إن به قبر آدم أبي البشر وإنه محل الأنبياء ومصلى الأخيار. وكان النبي قد خيم فيه في حجة الوداع وصلى فيه الأوقات الخمس؛ في الموضع الذي بني مكانه قبة كانت في صحن المسجد[٩٤].

وقد عرف الصحابة فضل موضع المسجد وأوصوا بالصلاة فيه. ونسب إلى أبي هريرة قوله: «لو كنت من أهل مكة لأتيت مسجد الخيف كل سبت». وكان سعد يقول «لو يعلم الناس ما فيه لضربوا إليه أكباد الإبل، ولأن أصلي في مسجد الخيف ركعتين أحب إلي من أن آتي بيت



(لوحة ١٣) نقش تجديد قناة السبيل بالقدس.
Van Berchem, *Matériaux Pour Un Corpus Inscriptionum Arabicarum*, Jérusalem ‘Haram’, no 103, p. 339, pl. 75.

المقدس مرتين فأصلي فيه»[٩٥]. ولم يزل أهل العلم والناس يأتون للصلاة فيه، ويتباركون بالموضع الذي صلى فيه النبي ، وعرف بمسجد منى ومسجد العيشومة؛ لعيشومة بصحنه كانت خضراء في الحدب والخصب. ولا يعرف على وجه التحديد أول من بناه، وقد رجح أحد الباحثين وجود البناء منذ صدر الإسلام لورود لفظة (مسجد) في الأحاديث النبوية وأقوال الصحابة[٩٦]، ولكنها أحاديث تدل على الموضع وعلى البناء، وأن بكور الزمان وبعد المكان لا يرجحان بناءه في أوائل العصر الإسلامي، ويمكن ترجيح بنائه بعد تدوين السيرة النبوية في العصر العباسي؛ فقد قام الخليفة أبو جعفر المنصور بعمارة المواضع التي وردت في السيرة النبوية وأقام عليها مساجد لحفظها من الاندثار والدنس، كموضع بيعة العقبة الذي أقيم فيه مسجد البيعة (١٤٤هـ/ ٧٦١م)، وجاء في نقش تأسيسه: «أعظم الله أجر أمير المؤمنين على بنيانه في عمران آثار رسول الله »[٩٧].

وقد وصف الأزرقي المتوفى سنة (٢٥٦هـ/ ٨٧٠م) عمارة المسجد وصفًا دقيقًا يستفاد منه أن تخطيطه كسائر المساجد التقليدية صحن فسيح تحيط به أربعة أروقة أكبرها رواق القبلة الموجود في الجانب الغربي وكان مكونًا من ثلاث بلاطات؛ أما الأروقة الثلاثة الأخرى فكل منها عبارة عن بلاطة واحدة. وفُتح في الجدار الشمالي المطل على وادي منى تسعة أبواب، وفي الجدار الشرقي خمسة أبواب، وبالجدار الجنوبي أربعة، كما فتح بجدار القبلة بابان اثنان. وكان بوسط صحنه منارة مربعة أقيمت بحد الموضع الذي صلى فيه النبي. وكان بالصحن أيضًا سقاية فيما بين المئذنة والرواق الشمالي تأخذ مياهها من عين زبيدة (عين عرفة)؛ ويعلو حوائط المسجد شرفات من الداخل ومن الخارج[٩٨].

وقد قام الخليفة الواثق بالله أبو جعفر المنصور بترميمه سنة (٢٢٧هـ/ ٤١-٨٤٢م)؛ ثم عمره الخليفة أحمد المتوكل سنة (٢٤١هـ/٥٥-٨٥٦م). وعمرته أم الخليفة الناصر لدين الله وكان اسمها مكتوبًا على بابه الكبير. وجدده الوزير محمد بن علي المعروف بالجواد الأصفهاني سنة (٥٥٩هـ/ ١١٦٤م)، وقام الملك المنصور عمر بن علي بن رسول مؤسس الدولة الرسولية باليمن بتجديده وبنى المئذنة التي كانت بالصحن. وكان على الواجهة الشرقية للمئذنة نقش يدل على ذلك، نصه كالتالي: «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم جدد لله الملك المعظم ملك الملوك الملك المنصور عمر بن علي بن رسول صاحب اليمن مسجد الخيف سنة سبع وأربعين وستماية». وفي سنة (٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م) أنفق التاجر الدمشقي أحمد بن عمر المعروف بابن المرجاني ما يزيد على ٢٠,٠٠٠ دينار على تجديده، كما أصلح الشيخ علي البغدادي شيئًا فيه سنة (٨٢٠هـ/ ١٤١٧م)، وجدد تجديدًا شاملًا في عهد السلطان قايتباي قطع به صلة المبنى القديم، وجدد أيضًا في عهد السلطان العثماني محمد الرابع سنة (١٠٧٢هـ/ ٦١-١٦٦٢م)، وكذلك سنة (١٠٩٢هـ/ ١٦٨١م)، واستعمل جزء جوار الجدار الشمالي كمقبرة كان بها قبور عليها قباب.

وبدخول البلاد في حكم الأسرة السعودية تضاءلت القيمة الروحية للمسجد ودب إليه الإهمال؛ فاستعمل في أثناء موسم الحج كسكن للحجاج المغاربة والدكارنة (حجاج مالي وبلاد جنوب الصحراء)، فكانوا يقومون فيه بالأمور الحياتية من طبخ وتجفيف لحوم وغسيل وقضاء الحاجة[٩٩]. وقد ظلت عمارة السلطان قايتباي لمسجد الخيف قائمة حتى عهد الملك فيصل بن عبد العزيز سنة (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م)؛ حيث اقتطع جزء كبير من صحنه والجدار الشمالي والشرقي، وبني فيه أروقة مع الإبقاء على القبة والمئذنة المفردتين وسط الصحن وكذا رواق القبلة؛ ثم أزيل البناء القديم بالكامل سنة (١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م) في عهد الملك فهد بن عبد العزيز، وبني بناءً حديثًا على مثال مسجد نمرة.

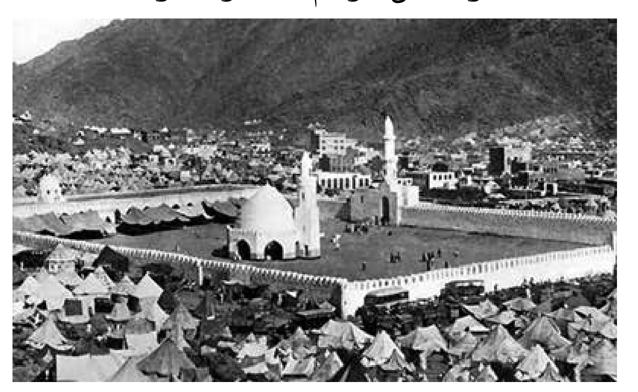
إصلاحات السلطان قايتباي في مسجد الخيف

يعد السلطان قايتباي أكثر السلاطين اهتمامًا بالمشاعر المقدسة؛ فقد قام بتجديد وبناء العديد من المباني في مكة والمدينة منها مسجد الخيف. وسبب التجديد أن المسجد دمره سيل كبير أتى على كامل البناء وهدم دار الإمارة المجاورة له. فابتدأ العمارة في ٢٧ شهر ذي الحجة سنة (٨٧٣هـ/ يولية ١٤٦٨م)؛ واستمرت نحو عام، فافتتح قبل موسم حج العام التالي، وتكلفت نحو ٨٢٢٩ دينارًا أشرفيًا. وأشرف على العمارة الأمير سنقر الجمالي وأخوه شاهين الجمالي[١٠٠]. وجاءت العمارة مغايرة عن البناء القديم الذي

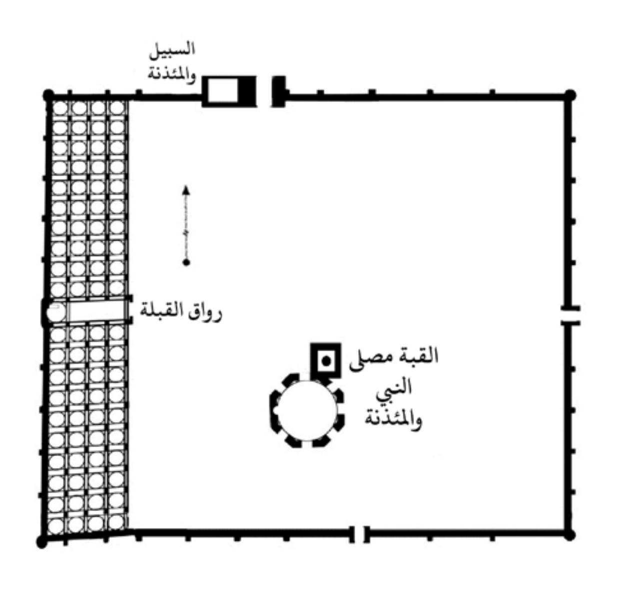
وصفه الأزرقي في العصر العباسي، إذ بُني بطراز تتجلى فيه فطرة الإسلام وطبيعة البداوة. وقد بني في الصحن قبة ضخمة قاعدتها مثمنة فوق الموضع الذي صلى فيه النبي ؛ لصيق المئذنة التي ترجع للملك عمر بن علي بن رسول. وجاء تخطيط المسجد هذه المرة برواق واحد في اتجاه القبلة أي الجانب الغربي، في حين ترك باقي المسجد صحنًا فسيحًا يحيط به جدار سميك. وبوسط كل جدار باب يعلوه عقد مدبب، والباب الرئيس بالجدار الشمالي وأقيم فوقه مئذنة، وجعل بالصحن أربعة صهاريج لتخزين الماء تأخذ مياهها من عين زبيدة. وألحق بالمسجد سبيل يقع غربي المدخل الرئيس وبني تحته صهريج، بالإضافة لدار لسكن أمير الحج أثناء إقامته في منى كانت لصيقة بالجدار الشمالي غربي السبيل المذكور[١٠١].

وتخطيط المسجد (لوحة ١٤، شكل ٨) يأخذ شكلًا مستطيلًا، يبلغ طول الضلع الشمالي ١٤٧٥ مترًا والضلع الجنوبي ١٣٢٥ مترًا؛ أما طول الضلعين الشرقي والغربي، فـ ١٠٥ أمتار؛ ويبلغ عرض جدرانه ١٥ متر، وقد دعمت تلك الجدران بدعامات من الخارج؛ موزعة على مسافات شبه منتظمة؛ وتبرز قليلًا من الداخل. وتعد الواجهة الشمالية هي الواجهة الرئيسية وفيها المدخل الرئيس؛ وهو أوسع وأعلى المداخل؛ بحيث يبرز عن الواجهة قرابة ٧٥ أمتار، وكان مكسوًّا بالرخام الأبيض والأصفر بأسلوب الأبلق، وكان يعلو فتحة المدخل شريط كتابي من الرخام ملون باللون الذهبي واللازوردي، يبدأ من العضادة اليمنى وينتهي على اليسرى بما نصه «بسم الله الرحمن الرحيم عمر مسجد الخيف السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباي سنة أربع وسبعين وثمانماية» وكان يوجد رنك السلطان قايتباي على يمين ويسار كوشتي العقد[١٠٢]. وقد أقيم فوق المدخل مئذنة بلغ ارتفاعها فوق الجدار ١٤ مترًا، وكانت مكونة من ثلاثة طوابق؛ الأول مربع، يعلوه الطابق الثاني وهو مثمن؛ وقد فتح في أربعة أوجه منه نوافذ للإضاءة. ويعلو هذا الطابق شرفة تقوم على صفين من المقرنصات، ثم يلي ذلك طابق أسطواني تعلوه شرفة أصغر من السابقة، ثم يلي ذلك جوسق المئذنة الذي كان مقامًا على ستة أعمدة تعلوها خوذة المئذنة يعلوها هلال[١٠٣].

أما رواق القبلة فكان عبارة عن أربع بوائك تحمل عقودًا موازية لجدار القبلة بواقع ٢١ عقدًا بكل بائكة، وعقودًا أخرى عمودية على جدار القبلة بواقع ٢٠ عقدًا بكل بائكة، وتحصر هذه البوائك بينها أربع بلاطات. كذلك يتوسط الرواق مجاز قاطع عمودي على المحراب الذي ينتهي بقبة كبيرة تعلو المحراب تقوم على رقبة مثمنة. وقد نتج عن وجود عقود موازية لجدار القبلة وأخرى عمودية عليه مناطق مربعة أقيمت عليها قباب ضحلة كانت ترى من الداخل؛ في حين بدا السقف مسطحًا من أعلى؛ أما محراب المسجد فكان يعد من أجمل المحاريب وهو محراب مجوف؛ يكتنفه عمودان من الرخام الأصفر؛ يعلوه عقد مدبب



(لوحة ١٤) مسجد الخيف بمنى قبل تجديده عهد الملك فيصل بن عبد العزيز عام ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.



(شكل ٨) تخطيط مسجد الخيف بمنى، من عمل الباحث.

مكون من صنج رخامية معشقة؛ ويحيط بجيزه وحنيته جفت ينتهي بميمية، وكتب لفظ الجلالة فوق قمة العقد. كذلك زين من أعلى برنكين كتابيين للسلطان قايتباي، ويتوج من أعلى بشريط كتابي بخط الثلث، نصه كالتالي«أمر بعمارة هذا المسجد المبارك مولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباي عز نصره ودام بقاه؛ وذلك بإشارة المقر السيفي شاهين الجمالي وأخيه المباشر سنقر الجمالي في سنة أربع وسبعين وثمانماية أحسن الله إليهما»[١٠٤].

عمارة الحرم النبوي الشريف على يد السلطان قايتباي

ورد ذكر هذا التجديد في النقش الذي نحن بصدده، ففي سنة (٨٧٩هـ/ ١٤٧٤م) أجرى السلطان قايتباي عمارة هامة بالمسجد النبوي الشريف لأمر اقتضى ذلك؛ فحضر شاد العمائر السلطانية بمكة والمدينة الخواجا شمس الدين بن الزمن[١٠٥]؛ وصحبه أمير جدة؛ ورتب أمر العمارة؛ فبدأوا بهدم عقود المسجد التي تطل على الصحن وأعادوا بناءها من جديد؛ وكذلك جانب من الجدار الشرقي جوار المئذنة المعروفة بالسنجارية، ثم توقفت العمارة لسفر ابن الزمن؛ واستئنفت حين رجوعه سنة (٨٨١هـ/ ٧٦-١٤٧٧م)[١٠٦]. ورغب ابن الزمن في عمارة الحجرة الشريفة، لذا عقد مجالس ومشاورات فقهية رخص له العلماء بعدها عمارة الحجرة الشريفة، فأزيلت قبتها وكانت مصنوعة من الخشب المغطى بألواح من الرصاص، ثم نقضت جدرانها وبنيت بإتقان شديد، وأقيمت فوق الحجرة قبة من حجرية بلغ ارتفاعها من موضع هلالها إلى أرض الحجرة الشريفة ١٨٥ ذراعًا بذراع العمل أي ما يقدر بـ ١٤ مترًا[١٠٧].

وقد ظل المسجد النبوي على حاله منذ عمارة ابن الزمن له حتى فجعت الأمة الإسلامية بحدوث حريق هائل أتى على المسجد كله؛ باستثناء الحجرة الشريفة، حدث هذا في فجر يوم الثالث عشر من رمضان سنة (٨٨٦هـ/ نوفمبر ١٤٨١م)؛ في أثناء قيام رئيس المؤذنين بأذان الفجر بالمئذنة الرئيسية المجاورة للحجرة الشريفة؛ ضربت صاعقة قوية المئذنة المذكورة، فالتهبت وانسحق ثلثها العلوي، وتناثر على سطح المسجد جوار القبة الشريفة، وعلقت النار بسطح المسجد وانتشرت فيه كله؛ وأصبح كالتنور، وأتت النار على كامل المبنى، وهرع أهل المدينة لإطفائه؛ ولكن عظمة النار وشدتها حالت دون أي محاولة، كما حاول البعض قطع السقف للحيلولة دون تقدم النار، لكنها سبقتهم وعجزوا عن أمرها. وكانوا إذا ألقوا عليها الماء زادت اشتعالاً، فخلصوا نجيًا. وبعد أيام شبعت النار بعد أن أتلفت أغلب سقف المسجد، وتهدمت جدرانه وتداعت أعمدته وأبوابه وحواصله؛ واحترقت المقصورة الخشبية والمنبر والكتب والمصاحف، ولم يبق من العقود والأعمدة إلا اليسير؛ ومات في تلك الحادثة بضعة عشر شخصًا، وكان عزاء المسلمين الوحيد هو سلامة الحجرة الشريفة؛ بحيث لم تمسها النار سوى ثقب حدث في القبة بقدر اتساع الترس[١٠٨].

ولما علم السلطان قايتباي بكى وبكى من حوله؛ وعلى الفور رُسم بتنظيف المسجد وإعادته للصلاة[١٠٩]. وكان أهل المدينة قد نظفوه ونقلوا جزءًا من الرديم إلى ما يلي باب الرحمة؛ ونصبوا الخيام به وجهزوه للصلاة، وبنوا في شهر شوال حول الحجرة الشريفة جدارًا يقيها ويصونها. وفكر السلطان قايتباي ورأى أن اختيار الله تعالى له لعمارة المسجد تشريف لا مزيد عليه، وكرامة ما بعدها كرامة، وذخيرة يرجو الفوز بسببها. فسخر إمكانيات الدولة كلها لأجل ذلك[١١٠]، وأمر بوقف البناء في عمائره بمكة، وأن يتوجه شاد العمائر المكية الأمير سنقر الجمالي صحبة أخيه الأمير شاهين الجمالي بمبلغ ٢٠,٠٠٠ ألف دينار؛ وما يزيد على مائة صانع من البنائين والنجارين والنشارين والدهانين والحجارين والحدادين والمرخمين، جمعهم السلطان من بلاد الشام ومصر والحجاز، ومعهم كثير من الدواب من الجمال والحمير. وعلى الفور شرعوا في تجهيز الآلات حتى كثرت في الطور والينبع والمدينة المنورة، وشرع في العمل سنة (٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م) وذلك بهدم بقايا المئذنة الرئيسية وعمارة الروضة الشريفة، ثم ما لبث أن وصل الخواجا شمس الدين بن الزين ليكون شاد العمارة وصحبته أكثر من ثلاثمائة من الصناع من الطوائف السابق ذكرها، وغيرهما من المبيضين والسباكين والجباسين، وأكثر من مائة جمل ومائة حمار[١١١].

وهكذا بدأت العمارة الثانية بكل همة ونشاط؛ فبدأ أولًا بهدم حوائط المسجد وإعادة بنائها وزادوا في عرضها قليلًا وأحدثوا بالجدار الشرقي دخلات لوضع الكتب والمصاحف، وأعادوا بناء الأعمدة والعقود وتسقيف المسجد، وأصلحوا القبة الشريفة وأقاموها فوقها قبة ثانية؛ بحيث أصبحت تغطى الحجرة الشريفة بقبتين علوية وأخرى لا ترى إلا من داخل الحجرة الشريفة؛ ثم حدث بالقبة العلوية تشقق بعد الانتهاء من العمل، فأصلحت سنة (٨٩١هـ/ ١٤٨٦م)[١١٢]، وأعادوا ترخيم الحجرة النبوية وما حولها وزخرفوا القبة بزخارف بديعة،[١١٣] حتى إن البرزنجي المؤرخ المعروف وصف الحجرة الشريفة حين كتب له السعد بدخولها، فقال: «وثم أطمعت بصري إلى داخل القبة الكبيرة فرأيتها في غاية الحسن والارتفاع مزينة بنقوش ظريفة عليها طراز فيه كتابة لم يمكننى إلا قراءة ما قابلني من جهتها الغربية وهو ......أنشأ هذه القبة الشريفة الغالية المعترف بالتقصير الراجي عفو ربه القدير قايتباي.......»[١١٤].

كذلك وسعوا المحراب العثماني وزخرفوه بالرخام وأقاموا عليه قبة محمولة على أعمدة، وأقاموا قبة قبلي الحجرة الشريفة بينها وبين الجدار حولها ثلاث قباب. وبنوا باب السلام وبالقرب منه قبتين، ورخموا جدار القبلة والجدار الشرقي وزخرفوه بالرخام والآيات القرآنية. وبنوا المحراب النبوي وأعادوه إلى موضع الصندوق الذي كان علامة على محاذاة الرأس الشريف، وزخرفوه بالرخام الملون بشكل بديع وبالآيات القرآنية بشكل رائق، وصنعوا للمسجد منبرًا (حاليًّا بمسجد قباء) ودكة للمبلغ بالرخام[١١٥]، وكتب عليه كتابة أثرية عبارة عن خمسة أسطر بخط الثلث، نصه كالتالي:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد أمر بعمارة هذا المحراب النبوي الشريف العبد الفقير المعترف بالتقصير مولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباي خلد الله ملكه بتاريخ شهر الحجة الحرام سنة ثمان وثمانين وثمانماية من الهجرة النبوية[١١٦].

كذلك بنيت دكتان أخريان في شمال المسجد بين بابي الرحمة والنساء، كما بنوا محراب التهجد الموضوع في الناحية الشمالية لبيت فاطمة. وزخرفوا محراب الحنفية أيضًا وأقاموا سياجًا عبارة عن شبكة من النحاس حول المقصورة. وكان السلطان قد نصبها بالحوش السلطاني بقلعة القاهرة واحتفل بإتمامه وكتب عليه نقوشًا بطريقة التخريم، قيل إن وزنه ٤٠٠ قنطار حمل على سبعين جملًا إلى المدينة.[١١٧] ومما كتب على هذه المقصورة عبارة التوحيد والرسالة (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، والنص التأسيسي التالي:

أنشأ هذه المقصورة الشريفة مولانا وسيدنا السلطان أبو النصر قايتباي تقبل الله منه في عام ثمان وثمانين وثمانماية من الهجرة النبوية[١١٨].

وقد كملت سقوف المسجد كلها في أواخر سنة (٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م)، وأبى السلطان إلا أن تبلغ العمارة الرونق الذي يتفق وجلال المكان؛ فأرسل سنة (٨٨٩هـ/ ١٤٨٤م) جماعة من الدهانين لمحو مادة النيلة من أشرطة الزخارف والكتابات والسقف واستبدالها بمادة اللازورد، وزود المسجد بالمصاحف الكبيرة والربعات الكثيرة؛ منها مصحف حمل على جمل بمفرده، وزوده أيضًا بالأثاث والشمعدانات والقناديل والمشكاوات والثريات، وتكلفت هذه العمارة نحوًا من ١٢٠,٠٠٠ دينار[١١٩].

ثم حدث أن مالت المئذنة الرئيسية وتشققت قمة القبة العليا التي تغطي الحجرة الشريفة؛ فانتدب لإصلاح ذلك الأمير شاهين الجمالي فوصل إلى المدينة سنة (٨٩١هـ/ ١٤٨٦م)؛ واقتضى الأمر هدم المئذنة حتى أساسها؛ وزادوا في عرض جدرانها وتلافوا عيوب العمارة السابقة، فجاءت على أحسن ما يكون؛ وهي المئذنة التي ما زالت قائمة حتى الآن. كذلك اختصرت القبة التي فوق الحجرة الشريفة وأعادوا بناءها بجبس مصري حملوه معهم من مصر، وكانت تسمى بالقبة البيضاء إلى أن دهنت باللون الأخضر سنة (١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م)[١٢٠]. وقد أجريت بالمسجد بعض الإضافات والإصلاحات في العصر العثماني في سنة (٩٨٠هـ/ ١٥٧٢م) في

عهد السلطان سليم الثاني، وفي سنة (١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م) في عهد السلطان محمود الثاني، ثم عمر العمارة الكبرى في عهد السلطان عبد المجيد سنة (١٢٦٥هـ/ ١٨٤٨م) وانتهت سنة (١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠م)[٢١]، ووصل من الأستانة الخطاط الكبير عبد الله الزهدي فكتب جميع ما هو مكتوب في الحائط القبلي من آيات قرآنية وأسماء النبي وأشعار في أشرطة أربعة وكتب بالروضة وقبابها وما يلي ذلك من الرواقين القبليين منها قصيدة البردة في مدة ثلاث سنوات[٢٢].

رمزية الشكل وملامح الخط

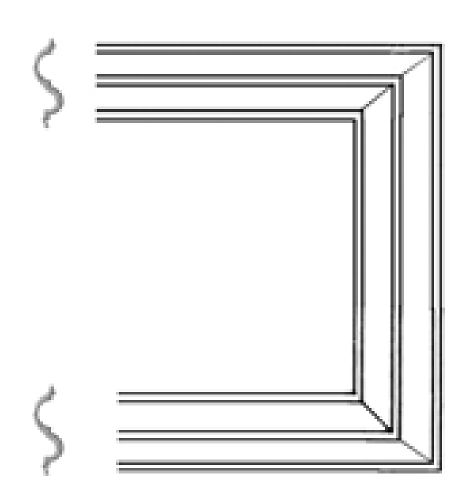
بالنسبة إلى ألوان النقش فلا شك أنها كانت تزخرفه؛ فهي تلك الألوان التي تعودنا أن نراها تزخرف الأشرطة الكتابية؛ فهي في مباني العظماء والأعيان ومن في منزلتهم تلون بألوان من شأنها أن تميز بين الخط وأرضيته تضفي عليهما جمالًا وبهاءً. وكان أشهر تلك الألوان الذهبي للكتابة والأزرق اللازوردي للأرضية والإطار؛ الأمر الذي من شأنه ازدياد كل لون حسنًا في أعين الناظرين؛ إذ تلعب ضدية اللونين دورها في إبراز محاسن العنصرين. ويمكن توظيف الخط واللون في تأثير بصري غاية في البراعة[٢٣]، ولا شيء أنسب للواجهة ليكتب عليها نص كالنقش الذي نحن بصدده المقصود ويمدح السلطان بفروسيته وتقواه.

أما مادة النقش فقد نقش في مدماك من أصل البناء، ومعنى ذلك أن صلابة المادة كان ضمن مقصود المعمار وفي حسبانه، وقد زيد في عرضه بسبب الإطار الذي يحدده، وهو إطار عبارة عن طنف بارز يؤطر النقش والمدخل وعقده الثلاثي مكون شكل ميمية أعلى منتصف العقد (شكل ٩)، كما زخرف طرفا الشريط الكتابي بأقواس مقلوبة ومعدولة (شكل ١٠)، وزخرف نهايته حين ينكسر مع دخلة الباب بزخارف نباتية (شكل ١١).

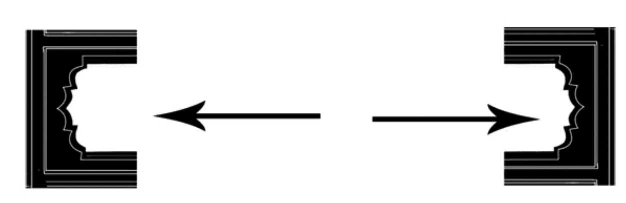
وقد كتب النقش بأسلوب متداخل بتكديس الكلمات جنبًا إلى جنب، وذلك باستغلال خصائص الحروف العربية وما يميزها كالليونة والمرونة، والمطاوعة الاستمداد أو الاختزال، والفصل والوصل، وتحملها من أنواع الزخارف ما يروق لكاتبها، وقابليتها للتشكيل على وجوه لا تحصى مع ثبوت جوهرها. وقد ارتكز الخطاط على الثقافة السائدة وما يقتضيه السياق واستقامة العبارة. وقد أباح له ذلك ومكن له أن يشكل من الكلمة الواحدة تصميمًا يعلو بعض حروفه على بعض عند الضرورة وللأغراض الجمالية[٢٤].

وكانت غاية الخطاط هي توفير مساحة كافية لكتابة هذا النص الكبير بطريقة متداخلة. فاعتمد الخطاط على التسلسل المنطقي والسياق؛ وذلك بكتابة الكلمة يعلوها أو يتداخل معها الكلمة التي تليها، ولم يكسر هذه القاعدة إلا عند الضرورة، فمثلاً جرى العرف أن يعطى لفظ الجلالة استحقاقه من الجلال والتشريف بكتابته فوق الكلمات بصرف النظر عن سياق الكلام، كما أجاز ذلك كتابة لفظ الجلالة فوق الكلام في حين السياق يجعلها في أسفله. وقد وفق الخطاط أيما توفيق حين كتب هذا النص الكبير في تلك المساحة المحدودة، وقد خدمته التجربة، فجاءت كثافة الخط على نسق واحد في أجزاء النقش المختلفة؛ فنهاية الشريط كبدايته لم يضطر إلى مزيد من الحشر أو إلى تفسيح الكلمات عن بعضها.

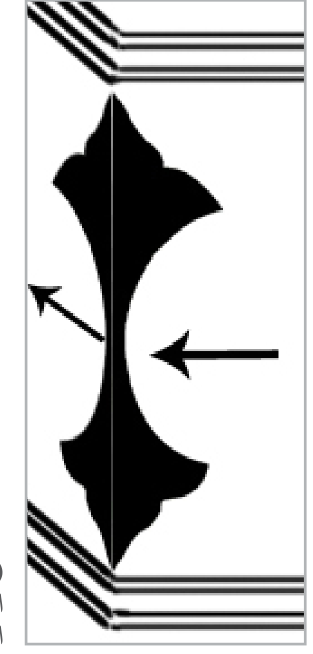
كذلك لجأ الخطاط إلى تمييز الكلمات بعضها عن بعض تضفير الحروف بعضها ببعض بحيث تظهر تارة فوق أجزاء من الحروف وتختفي تارة بأسلوب الجدائل. وفضل صور



(شكل ٩) الطنف البارز الذي يؤطر الشريط الكتابي، عمل الباحث.



(شكل ١٠) إطار الكتابة الأيمن والأيسر، عمل الباحث.

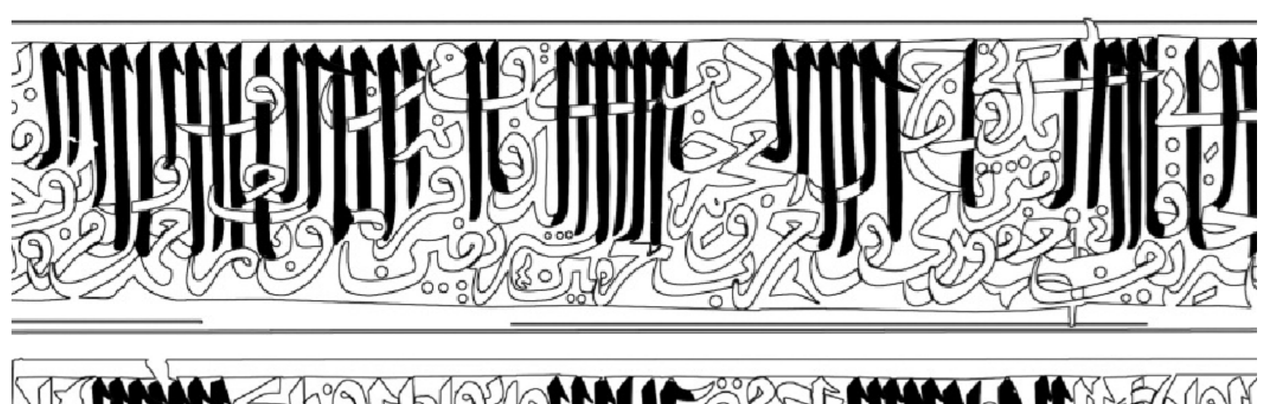


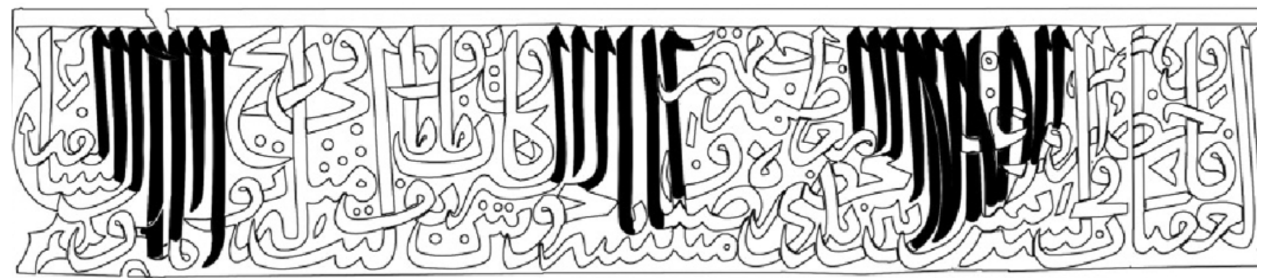
(شكل ١١) خرفة الكتابة عند انكسارها مع الجدران. عمل الباحث

الحروف المرنة والمدغمة عن الحروف المرسلة والمحققة، ولم يلجأ إلى الاستمداد والمط كما راقت له الياء الراجعة عن الاعتيادية، وفضل رسم الكاف المبتدأة بقائم يوازي الألف واللام. ولا حاجة في هذا الموقف لعلامات الشكل والإعراب فأهمل رسمها إلا فيما ندر، ورغم حرصه على إعجام الحروف وإلزام كل حرف بنقطه الخاصة؛ فإنه اضطر إلى إهمال الكثير منها، ولجأ إلى وضعها متقدمة عن الحرف أو متأخرة عنه.

واستفاد الخطاط أيضًا من الحروف الطوالع (الألف واللام وما شاكلهما) لتكوين تشكيلات جمالية برسمها متجاورة ومتوازية. واستباح لنفسه التطويل والتقصير والتقديم والتأخير والجذب والإزاحة وسط الخضم المضطرب من الحروف؛ فظهر وسط النقش قوائم مجمعة على أبعاد منتظمة وغير منتظمة (شكل ١٢)، وكأنها صواري رايات يرفعها الجنود في معركة مستعرة. وهي طريقة زخرفية متعارف عليها استخدمت أول الأمر في طغراوات السلاطين ثم في رنوكهم الكتابية؛ وفي هذا الأسلوب يظهر جمال الاستقامة عن الانحراف، وفي الاعتدال عن الميل.

أما بخصوص زخرفة النقش بالزخارف النباتية، فقد قلل الخطاط رسم المراوح النخيلية وأنصافها في شريط الكتابة العلوي وأكثر من رسمها في بيتي الشعر؛ وذلك لتوفير المساحة التي تسمح بمثل هذه الزخارف، حيث نراها برشاقتها المعهودة بين الحروف وفي الفراغات الكائنة بين الكلمات. تتدلى أحيانًا من إطارات النقوش ومن الخطوط الفاصلة بين أسطر النقوش، وأحيانًا تخرج من أجسام الحروف وتتجه يمينًا أو يسارًا ولأعلى أو لأسفل في حركة دائبة، وكأنها تبحث عن بصيص من الضوء وسط الجلبة والازدحام الذي تفرضه الكلمات. ومن هنا يظهر عليها القرب من الطبيعة في حركتها وطريقة اتجاهها، وهي حين تتدلى من أعلى تحاول النهوض عكس الجاذبية كواقع النبات، وهي أيضًا حين تنمو من أسفل تهم بالنهوض في غير عنف، ولكنها تنثني لأسفل في دعة بفعل نحولتها وثقل أغصانها، فلا هي تنهض ولا هي تخفق؛ وإنما هو أمر بين بين. وقد رسمت بعدة طرق، إما نصف ورقة نخيلية مفردة، وإما شقي ورقة نخيلية، وإما بفرع صغير يخرج منه براعم، وينتهي بورقة نخيلية، وإما عبارة عن ورقتين مكونتين شبه جناحين[٢٥] (شكل ١٣)، كما زخرف النقش ببعض الأشكال اللوزية والحليات الخطية لشغل الفراغ المتبقى بين الحروف والكلمات ونهايات الحروف.





(شكل ١٢) أسلوب تجميع الألفات في النقش لخلق شكلًا جماليًا، تفريغ الباحث.



(شكل ١٣) الزخارف النباتية في النقش، تفريغ الباحث.

الهوامش

* باحث في الآثار الإسلامية؛ faragelhussiny2021@yahoo.com.

١ السلطان الأشرف أبو النصر قايتباي (٨٧٣ - ٩٠١هـ) (١٤٦٨ - ١٤٩٥م) الجركسي المحمودي الأشرفي ثم الظاهري، يعد من أبرز سلاطين المماليك الجراكسة، وهو خاتمة العظام من سلاطين الجراكسة، وُلد نحو (٨٢٦هـ/ ١٤٢٢م)، واشتراه السلطان برسباي الدقماقي ثم آل إلى ملك الظاهر جقمق، وأعتقه وارتقى إلى رتبة أمير عشرة ثم صار طبلخاناه في أول سلطنة الظاهر خشقدم. ولما استقر تمربغا في السلطنة ولاه الأتابكية الكبرى، ثم وصل إلى السلطنة بعد مدة قصيرة بإجماع الأمراء الكبار في رجب عام (٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م). استمر في الحكم مدة طويلة بلغت تسعة وعشرين عامًا، وهي مدة لم يبلغها أحد من السلاطين عدا الناصر محمد بن قلاون. أثبت فيها قايتباي أنه أمهر السلاطين الجراكسة في ميدان الحرب وأوسعهم خبرة بشئون الحكم، وأكثرهم شجاعة وحكمة، بالرغم من أنه تعسف مثل غيره من السلاطين في جمع الأموال وفرض الضرائب، ولكن آثاره ومنشآته العديدة تثبت أنه كان ينفقها في المنشآت العامة أو في حروبه. وقد سبب عدم الاستقرار في الحدود الشمالية مصاعب عديدة له، خصوصًا ثورات التركمان ونفوذ العثمانيين، ويمتاز عصره أيضًا بالنشاط الواسع في كل ميادين الحياة في كل أقاليم الدولة المملوكية، خاصة في مجال العمران فلا جدال أنه كان مغرمًا بالعمارة؛ فقد ترك نحو ما يزيد على سبعين أثرًا ما بين إنشاء أو تجديد في القاهرة وحدها. توفي يوم الأحد السابع والعشرين من ذي القعدة سنة (٩٠١هـ/ ١٤٩٥م)، وكانت مدة حكمه تسعًا وعشرين سنة وأربعة أشهر وأيامًا. انظر: سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام (القاهرة، ١٩٧٦م)، ١٨٢.

٢ انكسار الشريط الكتابي عند دخلة الباب.

٣ هكذا بتخفيف أو تليين الهمزة وتسهيلها طلبًا للسهولة واليسر؛ لأن الهمزة حرف مهجور مستثقل يخرج من أقصى الحلق. وهي نبرة في الصدر تخرج باجتهاد. وظاهرة تخفيف الهمزة كانت لهجة أهل الحجاز وتحقيقها من لهجات تميم وقيس وبني أسد ومن جاورهم؛ ولما جاء الإسلام وجد تخفيف الهمزة من الفصاحة، انظر: إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية (القاهرة، ١٩٩٥م)، ٧٨.

٤ M. Van Berchem, *Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum*, *Egypt*, part II, Mémoires publiés par les Membres de la Mission Archéologique Française au Caire (Cair, 1903), 547-548.

٥ Van Berchem, *Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum, Egypt*, part II, 547-554.

٦ السخاوي (محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن عثمان، ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، الجزء السادس (بيروت، بدون ت)، ٦٠.

٧ السخاوي، الضوء اللامع، الجزء العاشر، ٢٨٠-٢٨١.

٨ القلقشندي (أحمد بن علي بن أحمد، ت ٨٢١هـ/ ١٤١٧م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، سلسلة الذخائر ١٣٠ (القاهرة، ٢٠٠٥م)، الجزء الأول، ١٦٧.

٩ السخاوي، الضوء اللامع، الجزء العاشر، ٢٨١.

١٠ فاضل مهدي بيات، المخطوطات العربية في مكتبة طوب قابي سراي بإستانبول، مجلة المورد، المجلد الرابع، العدد الرابع (بغداد، ١٩٧٥م)، ٢٩٤.

١١ السخاوي، الضوء اللامع، الجزء العاشر، ٢٨١.

١٢ السخاوي، الضوء اللامع، الجزء الحادي عشر، ١١٠.

١٣ أحمد صبحي منصور، العقائد الدينية في مصر المملوكية بين الإسلام والتصوف، سلسلة تاريخ المصريين ١٨٦ (القاهرة، ٢٠٠٠م)، ٤١.

١٤ ابن الحمصي (أحمد بن محمد بن عمر الأنصاري ت ٩٢٤هـ/ ١٥٢٧م)، حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران، تحقيق عبد العزيز فياض خرفوش، ط١، الجزء الثاني، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، (بيروت،٢٠٠٠م)، ٣٠٢.

١٥ حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، ج٣، دار النهضة العربية، (القاهرة، ١٩٦٦م)، ١١٥٣- ١١٥٤؛ السبكي (أبو الحسن تقي الدين علي بن عبد الكافي، ت ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م)، معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد النجار وآخرين، مكتبة الخانجي (القاهرة، بدون ت)، ٣١.

١٦ عاصم محمد رزق، أطلس العمارة الإسلامية والقبطية بالقاهرة، الجزء الثالث، القسم الثاني (القاهرة، ٢٠٠٣م)، ١٥٨٣.

١٧ Doris Behrens-Abouseif, *Cairo of the Mamluks: A History of the Architecture and its Culture*, I. B. Tauris (London, 2007), 294.

١٨ أشار دكتور عاصم رزق أن لهذا المبنى ملحقًا بجانب الشمال الشرقي والجانب الجنوب الغربي، ولكن لا يمكن تصور ملحق بالمبنى بالجانب الجنوب الغربي، فلا الصور القديمة ولا اللوحات الزيتية تنبئ بذلك، رغم أنه قرر قبل ذلك أن المبنى نقل إلى موضعه الحالي قال ما نصه 'وقد جعل المعمار هذه القبة من الناحية الشمالية الشرقية والجنوبية الغربية إيوانين مستطيلين بينهما قاعة يفتح كل منهما عليها بعقد مدبب. وقد غُطي كل من هذين الإيوانين بأقبية حجرية متقاطعة، وفتح بكل منهما شباك مستطيل. وثانيهما عبارة عن بناء يلاصق القبة من الناحية الجنوبية الشرقية يتكون من حجرة مستطيلة ذات أرضية من بلاطات حجرية، وفي جدارها الجنوبي الشرقي محراب مجوف خالٍ من الزخارف، وفي جداريها الشمالي الشرقي والجنوبي الغربي شباكان مستطيلان متشابهان'. انظر: عاصم محمد رزق، أطلس العمارة الإسلامية والقبطية بالقاهرة، ١٥٨٤.

١٩ N. Warner, *The Monuments of Historic Cairo* (Cairo, 2005), 140.

٢٠ كراسة لجنة حفظ الآثار العربية، المجموعة الثامنة (القاهرة، ١٨٩٢م)، ٧، ١٣، ٦٦، في صفحة ٩ في كراسة السنة التي تليها.

٢١ كراسة لجنة حفظ الآثار العربية، مجموعة ٢٦ (القاهرة، ١٩١٣م)، ٦٢.

٢٢ K.A.C. Creswell, 'A Brief Chronology of the Muhammadan Monuments of Egypt to 1517 AD', *Bulletin de l' Institut français d' archéologie orientale* 16 (1919), 149; D. Behrens-Abouseif, *Islamic Architecture in Cairo: An Introduction* (Cairo, 1989), 147; Behrens-Abouseif, *Cairo of the Mamluks*, 294;

عبد الرحمن زكي، موسوعة مدينة القاهرة في ألف عام (القاهرة، ١٩٨٧م)، ١٩٧-١٩٨.

٢٣ Behrens-Abouseif, *Cairo of the Mamluks*, 294; Warner, *The Monuments of Historic Cairo*, 140.

٢٤ Warner, *The Monuments of Historic Cairo*, 140.

٢٥ دليل الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة، المجلس الأعلى للآثار، وزارة الثقافة، مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار بمجلس الوزراء، الإصدار الأول (٢٠٠٠م)، ١٥٨-١٥٩.

٢٦ عاصم محمد رزق، أطلس العمارة الإسلامية والقبطية بالقاهرة، ١٥٨٢.

٢٧ رقم 00.159.5 بمتحف بروكلين:

http://www.brooklynmuseum.org/opencollection/objects/13388

٢٨ رقم 00.159.4 بالمتحف المذكور، انظر:

http://www.brooklynmuseum.org/opencollection/objects/13387

٢٩ انظر صفحة فوتوغرافيا مصر على موقع التواصل الاجتماعي فيسبوك:

https://www.facebook.com/292536804170226/photos/a.292544324169474.71300.292536804170226/638095472947689/?type=1.

٣٠ القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، الجزء الأول، ٥٨.

٣١ J.M. Rogers, 'The Inscription of the Cistern of Yacqūb Shāh al-Mihmandār in Cairo', *Fifth International Congress of Turkish Art* (Budapest, 1968), 737.

٣٢ Van Berchem, *Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum*, *Egypt*, part II, 547.

٣٣ Rogers, *The Inscription of the Cistern of Yacqūb Shāh al-Mihmandār in Cairo*, 737.

٣٤ هناك نقوش تحمل بعض ملامح نقش صهريج يعقوب شاه، منها نقش تأسيس وكالة قايتباي بباب النصر (٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م) ما نصه: (١- بسم الله الرحمن الرحيم وعلى سيدنا محمد وافر الصلوات وأكمل التسليم وعلى آله وأصحابه وصحبه أجمعين أمر مولانا المقام الشريف الأعظم والخاقان المنيف المعظم والسلطان الأعدل الأفخم الأكرم ٢- الملتجئ إلى ظل عرش الله الأورف مولانا السلطان المالك الملك الأشرف أبو النصر قايتباي سلطان الإسلام والمسلمين ناشر ألوية العدل في العالمين خادم حرمي الله ورسوله بلغه الله ٣- غاية سؤله ونهاية مأموله وأدار بسعوده الأفلاك الدائرة وجمع له بين خيري الدنيا والآخرة بإنشاء هذه الوكالة المباركة السعيدة وما بباطنها وظاهرها وأعلاها من المساكن العديدة ٤- وقفًا شرعيًا صحيحًا وحبسًا مرعيًا صريحًا مقصودًا به العمل الصالح الذي لا انقطاع له ولا انبثاث كما أشار الحديث في عدم انقطاع الثلاث مصروفًا ريعه في أحسن القربات وأولى أنواع البر ٥- والمثوبات وهو إطعام الطعام لجيران النبي عليه الصلاة والسلام من الخبز والدشيشة والتوسعة في العيشة للقاطنين في ذلك الحرم الشريف والواردين إلى ذلك المحل المنيف بحيث لا يصد عنه أحد من الفقراء ٦- والمساكين والأيتام والأرامل والمنقطعين جاريًا ذلك عليهم أبد الأبدين ودهر الداهرين حتى يرث الله الأرض ومن عليها ٧- وهو خير الوارثين تقبل الله ذلك منه قبولًا جميلًا وأثابه عليه ثوابًا جزيلًا بمحمد وآله وصحبه وسلم). انظر:

Van Berchem, *Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum, Egypt*, part II, 495.

٣٥ السخاوي، الضوء اللامع، الجزء السادس، ٢٠٢.

٣٦ السخاوي، الضوء اللامع، الجزء السادس، ٢١٠-٢١١.

٣٧ القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، الجزء الثاني، ٦٥.

٣٨ البيتان منقوشان على واجهة بسبيل المدرسة الشاذبكية بدمشق المشهورة بالشابكلية (٨٥٧هـ/ ١٤٥٢م). انظر: فرج حسين فرج، النقوش الكتابية المملوكية على العمائر في سوريا (٦٥٨-٩٢٢هـ/ ١٢٦٠-١٥١٦م) دراسة آثارية فنية مقارنة (رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة سوهاج، ٢٠٠٨م)، ١٦٧.

٣٩ السخاوي، الضوء اللامع، الجزء السادس، ٢٠٩.

٤٠ تحسين إبراهيم الدوسكي، جواهر المعاني في شرح ديوان أحمد الخاني (دهوك، ٢٠٠٥م)، ١٤٠.

٤١ أحمد حسين بكر، أشهر الأساطير الفارسية (القاهرة، ٢٠٠٨م)، ٣٧-٣٨.

٤٢ بديع الزمان الهمذاني (أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد ت ٣٩٨هـ/ ١٠٠٧م)، ديوان بديع الزمان الهمذاني، دراسة وتحقيق يسري عبد الغني عبد الله، منشورات دار الكتب العلمية، (بيروت، ٢٠٠٣م)، ١٣٤.

٤٣ ابن إياس (محمد بن أحمد، ت ٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى زيادة (مكة المكرمة، ١٩٧٥م)، الجزء الثالث، ٧٨؛ ابن الصيرفي)الخطيب الجوهري علي بن داود، ت ٩٠٠هـ/

١٤٩٥م)، إنباء الهصر بأنباء العصر، تحقيق حسن حبشي، سلسلة التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، ٢٠٠١م)، ١٦٢-١٦٣؛ محمد أحمد دهمان، العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلة الأمير يشبك من مهدي الدوادار (دمشق، ١٩٨٦م)، ٥٥.

٤٤ دولا بورت، قاهرة المماليك، موسوعة وصف مصر، الجزء الحادي عشر، ترجمة منى زهير الشايب (القاهرة، ٢٠٠٢م)، ٩٧.

٤٥ ابن إياس، بدائع الزهور، الجزء الثالث،٢١٠، أحمد السعيد سليمان، تاريخ الدولة الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة، (القاهرة، ١٩٧٢)، الجزء الثاني، ٤٣١-٣٤٢.

٤٦ Rogers, *The Inscription of the Cistern of Yacqūb Shāh al-Mihmandār in Cairo*, 738.

٤٧ السخاوي (محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن عثمان، ت ٩٠٢ه/ ١٤٩٦م)، وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، تحقيق بشار عواد معروف وآخرين، الجزء الثالث (١٩٩٥م)، ٩٧٠.

٤٨ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ٢٢٦.

٤٩ ابن إياس، بدائع الزهور، ٢٢٦، السخاوي، وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، ٩٧٠.

٥٠ عبد المنعم ماجد، دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، دراسة شاملة للنظم السياسية، جزآن (القاهرة، ١٩٦٤م)، ١٨٦-١٨٧.

٥١ ابن إياس، بدائع الزهور، الجزء الثالث، ٢٢٥، ٢٦١، ٢٧٣، ٢٨٢.

٥٢ شمس الدين سامي، قاموس الأعلام (إستانبول، ١٨٨٩م)، الجزء الأول، ٧٩٢.

٥٣ شمس الدين سامي، قاموس الأعلام، الجزء الأول، ٧٩٢.

٥٤ محمد محمد أمين وليلى إبراهيم، المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية (٦٤٨- ٩٢٣ه/ ١٢٥٠-١٥١٧م) (١٩٩٠م)، ٣٨.

٥٥ المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي، ت ٨٤٥ه/ ١٤٤٢م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية، طبعة بولاق (١٢٧٠ه)، الجزء الثاني، ٢٢٩.

٥٦ خالد محمد عزب، أسوار وقلعة صلاح الدين (القاهرة ٢٠٠٦م)، ١٤٢.

٥٧ المقريزي، الخطط، ٢٢٩.

٥٨ ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف، ت ٨٧٤ه/١٤٧٠م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق إبراهيم علي طرخان (القاهرة، ٢٠٠٨م)، الجزء الرابع عشر، ٧٧.

٥٩ خالد محمد عزب، أسوار وقلعة صلاح الدين، ١٤٥-١٤٨.

٦٠ ابن شاهين (خليل بن شاهين الظاهري، ت ٨٧٢ه/ ١٤٦٧م)، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق بولس راويس (باريس، ١٨٩٤م)، ٨٨.

٦١ السخاوي، الضوء اللامع، الجزء السادس، ٢٠٧-٢٠٨.

٦٢ ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، الجزء الثالث، ٣٢٩.

٦٣ ابن الصيرفي، إنباء الهصر بأنباء العصر، ٣٣٩.

٦٤ خالد عزب، أسوار وقلعة صلاح الدين، ١٤٥، ١٦٤.

٦٥ إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره، ج١، مطبعة دار الكتب المصرية، (القاهرة، ١٩٢٥م)، الجزء الأول، ٢١٠؛ عادل محمد غباشي، المنشآت المائية لخدمة مكة المكرمة والمشاعر المقدسة في العصر العثماني، دراسة حضارية، (رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم القرى، ١٩٩٠م)، ٣٣٦.

٦٦ إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، الجزء الأول، ٢١٠؛ محمد طاهر الكردي، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم (بيروت، ١٩٩٥م)، الجزء الخامس، ٣٥٥؛ عادل محمد غباشي، المنشآت المائية لخدمة مكة المكرمة والمشاعر المقدسة في العصر العثماني، ٣٥٨.

٦٧ عادل محمد غباشي، المنشآت المائية لخدمة مكة المكرمة والمشاعر المقدسة في العصر العثماني،٣٦٠-٣٦٤.

٦٨ إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، الجزء الأول، ٢١٤، محمد طاهر الكردي، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، الجزء الخامس، ٣٥٣.

٦٩ إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، الجزء الأول، ٢١٢، محمد طاهر الكردي، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، الحزء الخامس، ٣٥٤-٣٥٦؛ عادل محمد غباشي، المنشآت المائية لخدمة مكة المكرمة والمشاعر المقدسة في العصر العثماني، ٣٤٠-٣٤١.

٧٠ إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، الجزء الأول، ٢٢٠.

٧١ الصباغ (محمد بن أحمد بن سالم ت ١٣٢١ه/ ١٩٠٣م)، تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام والمشاعر العظام ومكة والحرم وولاتها الفخام، تحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، ط١، مكتبة الأسدي، (مكة المكرمة،٢٠٠٤م)، الجزء الأول، ٦١٢.

٧٢ إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، الجزء الأول، ٢١٥؛ الصباغ، تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام، ٦١٣؛ محمد طاهر الكردي، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، الجزء الخامس، ٣٤٩؛ عادل محمد غباشي، المنشآت المائية لخدمة مكة المكرمة والمشاعر المقدسة في العصر العثماني، ٨٧.

٧٣ إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، الجزء الأول، ٢١٥؛ الصباغ، تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام، ٦١٣؛ محمد طاهر الكردي، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، الجزء الخامس، ٣٤٩؛ عادل محمد غباشي، المنشآت المائية لخدمة مكة المكرمة والمشاعر المقدسة في العصر العثماني، ٨٧.

٧٤ إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، الجزء الأول، ٢١٥، محمد طاهر الكردي، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، الجزء الخامس، ٣٥٦.

٧٥ عمر بن فهد (محمد بن محمد بن محمد ت ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م)، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق عبد الكريم علي ابز، الجزء الرابع (مكة، ١٩٨٨م)، ٥٢٦.

٧٦ السخاوي، وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، الجزء الثاني، ٨٢١، عمر بن فهد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، الجزء الرابع، ٢٦.

٧٧ ابن الصيرفي، إنباء الهصر بأنباء العصر، ٢٦٤؛ إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، الجزء الأول، ٢١٧؛ محمد طاهر الكردي، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، الجزء الخامس، ٣٦١-٣٦٢.

٧٨ إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، الجزء الأول، ٢١٧؛ محمد طاهر الكردي، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، الجزء الخامس، ٣٦١.

٧٩ محمد فهد بن عبد الله الفعر، الكتابات والنقوش في الحجاز في العصرين المملوكي والعثماني من القرن الثامن الهجري حتى القرن الثاني عشر الهجري (رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم القرى، ١٩٨٦م)، ١٩٨.

٨٠ محمد أنور شكري، لوحان أثريان للسلطان قايتباي والسلطان سليمان القانوني، منشورات كلية الشريعة والدراسات الإسلامية (مكة، ١٩٧٦م)، ٣١-٣٢.

٨١ محمد فهد بن عبد الله الفعر، الكتابات والنقوش في الحجاز في العصرين المملوكي والعثماني، ١٩٩-٢٠١.

٨٢ إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، الجزء الأول، ٢٢٠؛ محمد طاهر الكردي، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ٣٦٧؛ عادل محمد غباشي، المنشآت المائية لخدمة مكة المكرمة والمشاعر المقدسة في العصر العثماني، ١٥٠.

٨٣ إبراهيم أبو أرميس، قناة السبيل تاريخها وأهميتها وواقعها، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد ١٨ (٢٠١٠م)، ٤٢

٨٤ إبراهيم أبو أرميس وإبراهيم حسني ربايعة، وقف قناة السبيل في القدس، مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، المجلد الثاني والعشرون، العدد الثاني (٢٠١٤م)، ١١٥.

٨٥ إبراهيم أبو أرميس، قناة السبيل تاريخها وأهميتها وواقعها، ٤٧، ٥٣.

٨٦ مجير الدين الحنبلي (عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن ت ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م)، الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، الجزء الثاني (عمان، ١٩٧٣م)، ٣٥، ٩٩.

٨٧ هو محمد بن أحمد بن رجب المعروف بابن النشاشيبي ولد سنة (٨٢١هـ/ ١٤١٨م) بالقاهرة وبها نشأ نشأة دينية، وكان تبعًا لوالده في خدمة الظاهر جقمق حين كان أميرًا حتى صار خازنداره، فلما تسلطن الأشرف قايتباي جعله خازنداره ثم ولاه نظر الحرمين بالقدس والخليل في سنة (٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م)، فدام على ذلك ثماني عشرة سنة وكان خيرًا محبًا للعلماء (السخاوي، الضوء اللامع، الجزء السادس، ترجمة ١٠٢٥، ٣٠٨). وقد قام ناصر الدين بن النشاشيبي بإصلاحات كبيرة في الحرم القدسي الشريف، في المصلى الجنوبي وفي القنطرة الجنوبية الغربية المفضية لساحة قبة الصخرة وعين السبيل وغيرها، وبقي الكثير من النقوش تحمل اسمه نشرها فان برشم.

Van Berchem, *Matériaux Pour Un Corpus Inscriptionum Arabicarum, Jérusalem 'Haram',* Mémoires publiés par les membres de l'Institut Français d'archéologie orientale du Caire (1922), 159, 433, Jérusalem 'Ville', 358.

انظر أيضًا: عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، الجزء الأول (القدس، ١٩٨٦م)، ٢٥٦.

٨٨ مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، الجزء الثاني، ٧٨. وقد أشار مجير الدين إلى المكان الذي دخلت فيه العين مدينة القدس، وحدد أنه جوار المدرسة الجالقية، ويبدو أنه كان حوضًا أو فسقية حل محلها سبيل باب السلسلة الذي أنشأه السلطان العثماني سليمان القانوني سنة (٩٤٣هـ/ ١٥٣٦م). انظر: كامل العسلي، من آثارنا في بيت المقدس (عمان، ١٩٨٢م)، ٢٧١.

٨٩ Berchem, *Matériaux Pour Un Corpus Inscriptionum Arabicarum, Jérusalem 'Haram'*, 339, pl. LXXV.

٩٠ مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، الجزء الثاني، ٢٩، ٣٣١.

٩١ عن التجديدات العثمانية لقناة عين السبيل انظر إبراهيم أبو أرميس وإبراهيم حسني ربايعة، وقف قناة السبيل في القدس، ١١٦-١٢٥.

٩٢ ابن منظور (محمد بن مكرم الإفريقي المصري، ت ٧١١هـ/ ١٣١١م)، لسان العرب، الجزء الثاني (بدون ت)، ١٣٠٤.

٩٣ إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، الجزء الأول، ٣٢٢.

٩٤ الأزرقي (محمد بن عبد الله بن أحمد ت ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م)، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، الجزء الثاني، تحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش (مكة المكرمة، ٢٠٠٣م)، ٧٦٨؛ الفاكهي (محمد بن إسحاق بن العباس ت ٢٧٢هـ)، أخبار مكة من قديم الدهر وحديثه، تحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش (بيروت، ١٩٩٤م)، الجزء الثالث، ٣٩٦، الجزء الرابع، ٦٦؛ الصباغ، تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام، الجزء الأول، ٥٣٣.

٩٥ الفاكهي، أخبار مكة من قديم الدهر وحديثه، الجزء الرابع، ٢٦٧.

٩٦ عدنان محمد فايز الحارثي، عمارة السلطان قايتباي المملوكي لمسجد الخيف بمنى (٨٧٣-٨٧٤هـ/ ١٤٦٨-١٤٩٦م)، مجلة العصور، المجلد الثالث، الجزء الأول (٢٠٠٣م)، ٨٦.

٩٧ من قراءة الباحث فرج الحسيني لنقش تأسيس مسجد البيعة بمنى.

٩٨ الأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، الجزء الثاني، ٧٨١-٧٨٨.

٩٩ إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، الجزء الأول، ٣٢٢-٣٢٥. وقد قرأ إبراهيم رفعت النقش خطأً هكذا 'أربع وسبعين'، انظر أيضًا عدنان محمد فايز الحارثي، عمارة السلطان قايتباي المملوكي لمسجد الخيف بمنى، ٨٦.

١٠٠ عمر بن فهد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، الجزء الرابع، ٥١٣.

١٠١ عمر بن فهد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، الجزء الرابع، ٥٠٩-٥١٢؛ السخاوي، الضوء اللامع، الجزء السادس، ٢٠٦؛ السخاوي، وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، الجزء الثاني، ٨١١؛ إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، الجزء الأول، ٣٢٢-٣٢٤؛ محمد طاهر الكردي، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، الجزء الخامس، ٥٠٣-٥٠٦.

١٠٢ إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، الجزء الأول، ٣٢٣؛ محمد طاهر الكردي، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ٥٠٦؛ عدنان محمد فايز الحارثي، عمارة السلطان قايتباي المملوكي لمسجد الخيف بمنى، ٩١.

١٠٣ إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، الجزء الأول، ٣٢٢؛ محمد طاهر الكردي: التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ٥٠٦.

١٠٤ محمد فايز الحارثي، عمارة السلطان قايتباي المملوكي لمسجد الخيف بمنى، ٩٦-٩٧.

١٠٥ هو الخواجا شمس الدين محمد بن عمر بن محمد بن عمر الدمشقي ثم القاهري المعروف بابن الزمن، ولد سنة (٨٢٤هـ/ ١٤٧٩م) بدمشق وبها نشأ نشأة دينية، ثم اشتغل بالتجارة وربح منها حتى بلغ صيته الآفاق، وسافر إلى شتى البقاع وصارت قوافله تسير في أرجاء المعمورة، وخالط العلماء والصالحين واختص بالملك الأشرف قايتباي حين كان أميرًا، فلما تولى السلطنة عينه مشرفًا على عمائره بمكة، وخلالها عمر المسجد الحرام؛ وأجرى مياه عين بازان وعمارة مدرسة قايتباي بمكة، وله عمائر بمكة منها رباطه المشهور، ثم عينه السلطان مشرفًا على عمائره بالمدينة سنة (٨٧٩هـ/ ٧٤-١٤٧٥م)، وفيها أجرى عمارة المسجد النبوي قبل الحريق وبعده، وجدد مسجد قباء وأنشأ رباطًا ومدرسة للسلطان، وأجرى العين الزرقاء، كما أنشأ مدرسة بالقدس وعمر ضريح الإمام الشافعي وجدد تربة عبد الله المنوفي بالقاهرة (السخاوي، الضوء اللامع ، الجزء الثامن، ٢٦٠-٢٦١).

١٠٦ البرزنجي (جعفر بن إسماعيل ت ١١٧٧هـ/ ١٧٦٣م)، نزهة الناظرين في مسجد سيد الأولين والآخرين (القاهرة، ١٨٦٠م)، ١٧-١٩.

١٠٧ السمهودي (نور الدين علي بن عبد الله ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، تحقيق قاسم السامرائي (مكة المكرمة، ٢٠٠١م)، الجزء الثاني، ٤٠٦، ٤١٢؛ السخاوي)محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن عثمان، ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م)، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، نشر أسعد طرابزوني الحسيني، الجزء الثالث (١٩٨٠م)، ترجمة قايتباي رقم ٣٤٧١؛ البرزنجي، نزهة الناظرين في مسجد سيد الأولين والآخرين، ١٧-١٩؛ إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، الجزء الأول، ٤٦٤.

١٠٨ السمهودي، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، الجزء الثاني، ٤١٦-٤١٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، الجزء الثالث، ١٨٧-١٨٨؛ السخاوي، وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، الجزء الثالث، ٩٢؛ البرزنجي، نزهة الناظرين في مسجد سيد الأولين والآخرين، ١٩؛ إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، الجزء الأول، ٤٦٤؛ محمد هزاع الشهري، عمارة المسجد النبوي منذ نشأته حتى نهاية العصر المملوكي (القاهرة، ٢٠٠١م)، ٢١٩-٢٢٠.

١٠٩ ابن إياس، بدائع الزهور، الجزء الثالث، ١٨٨.

١١٠ السمهودي، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، الجزء الثاني، ٤٢٠.

١١١ السمهودي، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، الجزء الثاني، ٤٢١؛ السخاوي، وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، ج٣، ٩٢٩؛ محمد هزاع الشهري، عمارة المسجد النبوي منذ نشأته حتى نهاية العصر المملوكي، ٢٢٦-٢٢٧.

١١٢ البرزنجي، نزهة الناظرين في مسجد سيد الأولين والآخرين، ٢١.

١١٣ السمهودي، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، الجزء الثاني، ٤٢٢.

١١٤ البرزنجي، نزهة الناظرين في مسجد سيد الأولين والآخرين، ٧٠.

١١٥ السمهودي، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، الجزء الثاني، ٤٢٢؛ إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، الجزء الأول، ٤٦٤.

١١٦ محمد هزاع الشهري، عمارة المسجد النبوي منذ نشأته حتى نهاية العصر المملوكي، ٢٤٣.

١١٧ السمهودي، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، الجزء الثاني، ٤٢١-٤٢٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، الجزء الثالث، ٢٠٣؛ محمد هزاع الشهري، عمارة المسجد النبوي منذ نشأته حتى نهاية العصر المملوكي، ٢٢٦-٢٢٧.

١١٨ محمد هزاع الشهري، عمارة المسجد النبوي منذ نشأته حتى نهاية العصر المملوكي، ٢٤٣.

١١٩ السمهودي، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، الجزء الثاني، ٤٢١-٤٢٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، الجزء الثالث، ٢٠٤؛ إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، الجزء الأول، ٤٦٥؛ محمد هزاع الشهري، عمارة المسجد النبوي منذ نشأته حتى نهاية العصر المملوكي، ٣٣١-٣٥٧.

١٢٠ السمهودي: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، الجزء الثاني، ٤٢٨؛ إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، الجزء الأول، ٤٧٤؛ محمد هزاع الشهري، عمارة المسجد النبوي منذ نشأته حتى نهاية العصر المملوكي، ٣٤٣.

١٢١ إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، الجزء الأول، ٤٦٥.

١٢٢ لبرزنجي، نزهة الناظرين في مسجد سيد الأولين والآخرين، ٤٤.

١٢٣ هاني محمد القحطاني، الكتابة والعمارة، تحليل بصري تاريخي لأهم تجليات الخط العربي في العمارة الإسلامية، مجلة البحوث والدراسات القرآنية، العدد الثامن، السنة الرابعة، (مكة المكرمة، ٢٠٠٩م)، ٣١٠.

١٢٤ حسن الباشا، جماليات الخط العربي، بحث منشور بكتاب موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، المجلد الثالث (القاهرة،٢٠٠٠م)، ١٧٢.

١٢٥ فرج حسين فرج، النقوش الكتابية المملوكية على العمائر في سوريا، ٢٥٩.